محمد بن ناصر العبودي

في

اجتياز القوقاز

بلاد الشركس

(الإديغي)

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ (١٩٩٩م)

ⓒ محمد بن ناصر العبودي ، ١٤٢٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العبودي ، محمد بن ناصر

بلاد الشركس : رحلة وحديث عن المسلمين .ـ الرياض .

... ص ، .. سم

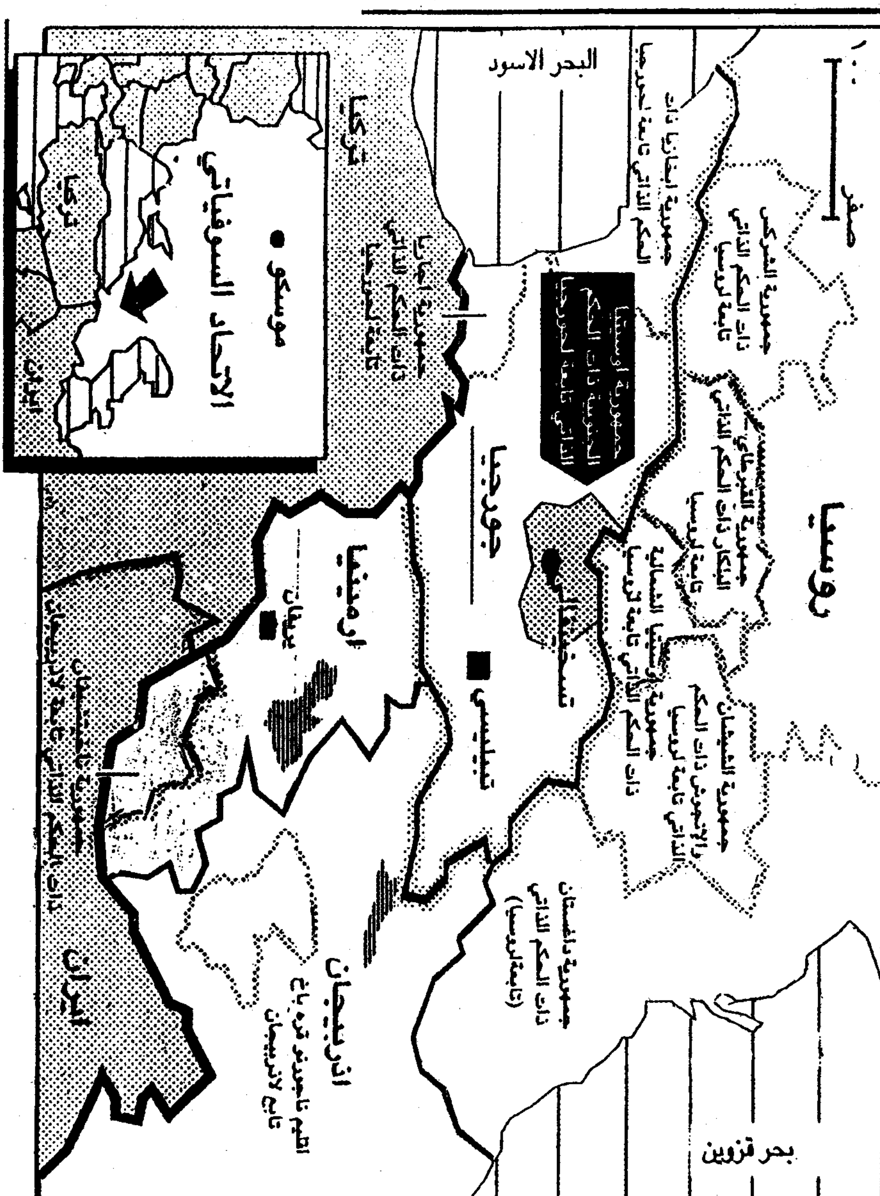
ردمك : ٠-٨٤١-٣٥-٩٩٦٠

١- أدب ورحلات ٢- أسيا الوسطى ـ وصف ورحلات أ- العنوان

ديوي ٩١٥،٥٥ ٢٠/٠٥٥٠

رقم الإيداع : ٢٠/٠٥٥٠
ردمـك : ٠-٨٤١-٣٥-٩٩٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم



بلاد القوقاز

تمهيد

دأبت رابطة العالم الإسلامي منذ أن تراخت قبضة الشيوعيين الملحدين على البلاد الروسية وما يتبعها من بلاد المسلمين على أن ترسل وفوداً برئاستي - في الأكثر - إلى تلك البلاد، فكنا نحمل معنا نقوداً محدودة المقدار، ولكنها ذات أهمية لكوننا ندفعها فوراً لمن نرى أنهم مستحقون لها مثل القائمين على مساجد تبنى وتوقف فيها البناء لقصور النفقة، ومثل المدارس التي تؤسس، ولكنها كثيراً ما تقف عند التأسيس لكون أهلها لا يجدون ما ينفقون عليها بسبب الحالة الاقتصادية المتردية التي تعم تلك البلاد في المرحلة الانتقالية من الشيوعية إلى اقتصاد السوق الحرة.

وقد قمت على رأس وفود من رابطة العالم الإسلامي بمثل هذا العمل مرات عديدة في نواحي الاتحاد السوفيتي السابق الواسعة، وفي هذه المرة قررنا أن نطوف في بلاد القوقاز، والقوقاز هي هذه الجبال الشامخة التي كانت مشهورة في التاريخ القديم بمن سكنها من الأقوام، ومن قصدها بالفتح من أهل الإسلام، فكان أهلها يسمون في تاريخنا القديم بالخزر واللان، وتسمى بلادهم بالسرير أيضاً، والسرير هي الجهة الشمالية الغربية من جبال القوقاز.

وكان الأسلاف من بني قومنا يسمون هذه الجبال جبال (قبق) أو جبال قبج، أما الأخلاف فإنهم صاروا يسمونها القفقاس، أو القفقاز، أو القوقاز، على عدم ثبات عند لفظ من هذه الألفاظ حتى إن بعضهم كان يذكر اللفظين لها في مقال واحد أو كتاب واحد.

ولكن تسميتها هذه المشتهرة عند غير العرب والمسلمين صارت وحدها

المعروفة عند أبناء المسلمين لكونهم اختاروا التقليد على الرجوع إلى العلم التليد، أو هم لم يكلفوا أنفسهم حتى عناء البحث في تراثنا المجيد عن أصل اسمها الجديد.

ومع ذلك اضطررت إلى الأخذ بالقول المأثور: وهو أن الخطأ المشهور، خير من الصواب المهجور، فجعلت العنوان العام لعدة كتب كتبتها عن المنطقة: (رحلات القوقاز).

ولتلك الجبال أسماء مجلجلة في التاريخ حتى إنها كانت تسمى في بعض الكتب الفارسية القديمة باسم كوه كاف بمعنى جبل (كاف)، أو جبل (قاف)، وهو الجبل الذي تطور المفهوم الشعبي لاسمه حتى صار يزعم أنه الذي تتفرع منه جبال الدنيا، وقيل في وصفه إنه أعظم جبال الأرض على الإطلاق، وأنه أبعدها عن الأقسام المعمورة من الأرض.

وحتى سد يأجوج ومأجوج زعم أقوام أنه ذلك السد الموجود عند بلدة (دربند) في هذه الجبال، وهي التي يسميها أسلافنا العرب بالباب أو (باب الأبواب)، ويذكرون المعركة التي حصلت فيها بين جنود المسلمين وجنود الكفار بالاهتمام والتنويه، مع أن معنى اسمها (دربند) هو الباب الموصد؛ لأن (در) بالفارسية (باب)، و(بند) مغلق، وإن كان كثير من أهل هذه البلاد لا يعرفون هذا المعنى الحاضر، لأنهم صاروا لا يعرفون الفارسية، ولا يفهمون معاني التسميات التي سميت بها، لأن لهم في هذه الجبال وحدها (٣٣) لغة مستقلة أو متفرعة من لغات أخرى، لذا كان بعضهم لا يعرف، كلام بعض، حتى إنني عندما زرت مدينة (بوينا لسكي) في داغستان، وخطبت في جامعها وقف على يميني أخوان يترجمان ما أقوله لأهل جماعة المسجد لأنهم لا يجتمعون كلهم على فهم لغة واحدة، فكان أحدهما وهو الشيخ إلياس عبدالله يترجم ما أقوله إلى لغة (القومق)، وكان الشيخ مرتضى علي يترجم

إلى لغة الأوار.

وهذا بالنسبة إلى أهل داغستان الذين تقع مدينة (دربند) في بلادهم، وهي الوجه الواضح من هذه الجبال؛ لأنها تطل على بحر الخزر المعروف الآن ببحر قزوين، وتتصل بأذربيجان المعروفة المشهورة من قديم الزمان حتى الآن.

أما داخل جبال (القوقاز) فإن الأمر فيها أجل، والغرابة فيها أعمق، وسوف نقص عليك من أمر تجوالنا فيها ما لا نزعم أنه غريب على سمعك، بعيد عن علمك، ولكنه الواقع الذي رأيناه وسجلناه كما شاهدناه.

قبل القوقاز:

كنا قبل السفر إلى القوقاز قد مررنا ببلاد (القرم) وهي بلاد مسلمة، كان سكانها من التتار المسلمين الذين كانت لهم ممالك وجيوش مسلمة، وكانوا يتخذون العربية حرفاً ومعنى لغة لهم في أيام عزهم، إلا أن الروس احتلوا بلادهم، وواصلوا اضطهادهم حتى قامت في روسيا الثورة الشيوعية، فكان نصيبهم من محاربة دينهم وتاريخهم المجيد أكبر نصيب يصيب شعباً بمصيبة عظيمة في الاتحاد السوفيتي السابق.

وذلك عندما أمر طاغية الشيوعية الهالك (جوزيف ستالين) بنفيهم نفياً عن بلادهم جماعياً لا يبقي على أحد منهم من شيخ أو غلام أو حتى من صبي أو امرأة، إلى مجاهل آسيا الوسطى وسيبريا حتى خلت منهم جميع بلادهم، وحل محلهم فيها غيرهم من المهجرين، واستمروا على ذلك حتى أذن الله لهم بأن يبرؤوا من التهمة التي كان قد نبزهم بها ستالين، واتخذها حجة لنفيهم نفياً جماعياً واقتلاعهم من بلادهم، وهي تهمة التعاون مع الألمان إبان الحرب العالمية الثانية.

وقد أخذوا يعودون إلى بلادهم، ولكنهم وجدوا أنهم أصبحوا فيها أقلية

غريبة، ومع ذلك واصلوا العودة، واحتاجوا إلى أن يساعدهم إخوتهم المسلمون في رابطة العالم الإسلامي مساعدة إسلامية ثقافية خالصة، فزرناهم في بلادهم (القرم) قادمين إليها من مدينة إسطنبول، وبقينا فيها من يوم الإثنين ١٥/ ١/ ١٤١٤هـ حتى يوم الجمعة ١٩/ ١/ ١٤١٤هـ، وكتبت عن مشاهداتي فيها كتاب ((بلاد القرم)).

وقررنا أن ننطلق من بلاد (القرم) إلى داخل أقطار القوقاز، ولكن وقفت دون تنفيذ ما رسمناه عوائق الإدارة الرديئة، وعدم انتظام الرحلات الجوية، بل عدم وجودها في أكثر الأحيان إلى البلاد التي كانت تذهب إليها، إضافة إلى عدم وجود اتصالات فيما بينها مع كونها كانت كلها واقعة تحت هيمنة الاتحاد السوفيتي السابق؛ بل تحت قبضته الحديدية.

ولذلك رأينا - مضطرين - أن نذهب إلى ميناء (سوتشي) الواقع في جمهورية روسيا الاتحادية على ساحل البحر الأسود، ومن هناك نحاول أن نتدبر أمرنا في كيفية الوصول إلى الإقليم الذي قررنا أن نزوره أولاً، وهو المسمى عندهم بجمهورية (الإديغي) والإديغي من الشركس، لغتهم لغة الشركس، وعاداتهم عادات الشركس، ويقال إنهم أصل الشركس، أو لنقل الأصلاء في (الشركسية).

ومع ذلك فصل الحاكمون من الشيوعيين السابقين ما بينهم وبين أبناء عمومتهم الشركس بالاسم، فأسموا بعضهم بالإديغي، وبعضهم بالشركس، وبعضهم بالقبرداي.

وهذه كلها أسماء حقيقية صحيحة، ولكنهم أبرزوها وجعلوا لها من الأهمية أن خصصوا جمهوريات أو أقاليم منفصلة لكل طائفة من طوائف الشركس الثلاث، وباسم من هذه الأسماء الثلاثة.

فجمهورية الإديغي هذه للإديغي من الشركس لا يشاركهم فيها

السكنى غيرهم من الأقوام العريقة في هذه المنطقة، ولكن صار يشاركهم فيها أقوام من الغرباء عنها في الدين والجنس واللغة، مثل الروس، والروس البيض، وأبناء عمومتهم من السلافيين كما اشترك معهم غيرهم من غير المسلمين مثل الأرمن والكرجيين (سكان جورجيا) حتى غدا المسلمون (الإديغي) من سكانها أقلية فيها تبلغ الثلث من سكانها لا تزيد.

والجمهورية الأخرى المجاورة لها هي (جمهورية القرتشاي شركس)، والقرتشاي أقوام من المتكلمين باللغة التركية، وليس بينهم وبين الشركس قرابة في النسب، وإنما هي القرابة بل الإخوة في الدين الإسلامي الحنيف.

والقرتشاي فيها أكثر من الشركس، ومع ذلك لا يؤلف المسلمون فيها من القرتشاي والشركس مجتمعين إلا نصف سكانها لا يزيدون على ذلك.

أما النصف الآخر فإنهم من غير المسلمين من الروس والأكرانيين، ومن لف لفهم من المستوطنين.

والجمهورية الثالثة هي جمهورية (القبرداي بلغار)، و(القبرداي) أقوام من الشركس الأصلاء الذين لا تختلف لغتهم الشركسية عن لغة إخوانهم الشركس في جمهورية الإديغي وقرتشاي شركس، ولهم الأغلبية في العدد على إخوانهم المسلمين البلغار.

كما أنهم يؤلفون مع البلغار في هذه الجمهورية ٧٠٪ من السكان، ولا يزيد عدد غير المسلمين فيها عن الثلاثين في المائة.

وهذا الكتاب عن جمهورية الإديغي.

وقد خصصتُ للجمهوريتيْن الأخيرتين كتاباً آخر بعنوان «من بلاد القرتشاي إلى بلاد القبرداي»، وطبع قبل هذا الكتاب.

أصل التسمية :

الإديغي هم الشركس، وقد أجمع الشراكسة على أن هذا الاسم (إديغي) أو (أديغة) هو اسم قومي لهم.

واصل الكلمة (أتي خه) صارت التاء فيه دالاً فأصبحت الكلمة (أديغي)، أما الخاء فإنها تنطق بلغتهم مع مخرج يقع بين مخرجي الخاء والغين في حرف لا نظير له في العربية، لذلك تكتب غيناً.

وقد أجمعوا أو كادوا يجمعون على أن معناه نجيب، أو أصيل، وبعضهم فسره بنبيل أو إنساني.

وعلى كل حال فإنه اسم محبوب عندهم لأنه قومي أصيل، بلفظه ومعناه.

ولذلك صاروا حتى الآن يقولون لمن يتحلى منهم بخلق رفيع، وصفات نبيلة: إنك (إديغي) حقاً.

والشركس الذي هم الإديغة هم من السكنة القدماء لهذه المنطقة من جبال (القوقاز)، واختلف في أصل مجيئهم إليها على أقوال، أهمها اثنان:

الأول: وهو الأقرب للصواب أنهم من الحيثيين الذين جاؤوا إلى (القوقاز) من جهة الجنوب، وكانت لهم حضارة عريقة، إلا أن حروبهم مع جيرانهم وبخاصة مع السومريين العراقيين أضعفتهم، حتى اضطروا آخر الأمر تحت ضغط السومريين إلى ترك المنطقة، والذهاب جهة الشمال إلى هذه الجبال.

وقد حافظوا فيها على كيانهم الخاص، وعلى صفاتهم المتميزة بحيث بقيت لغتهم العريقة بينهم حتى الآن رغم ما تعرضت له المنطقة من حروب

وغزوات.

وبقيت عاداتهم القديمة مرعية محترمة فيما بينهم يتلقاها الجيل الجديد عن الجيل الذي قبله.

ولكن الغريب في الأمر أن عددهم رغم عراقتهم ظل قليلاً محدوداً، وربما كان هذا راجعاً إلى طبيعة بلادهم الجبلية الوعرة التي لا تجذب المهاجرين إليها، بل إنها قد تحمل بعض أهلها على الهجرة منها، بخلاف الأراضي السهلة النهرية التي يتكاثر سكانها كما هي عليه الحال في الهند ومصر على سبيل المثال.

اسم شركس:

ذكر المؤرخ سترابون الذي كتب ما كتبه في القرن الأول للميلاد الشراكسة باسم (جيكس) أو (جيكت)، كما أن المؤرخ يلين سماهم (سرست) أو (كركس).

والحقيقة أن كل هذه الأسماء هي أسماء خاصة ببعض قبائل شركسية تسكن شمال بلاد القوقاز تسمى (سيراكس).

ويؤخذ من هذه أن اسم شركس مأخوذ من (كركس) أو (سيرست) الذي لقب به قدماء اليونان إحدى قبائل الشركس، أو من اسم (سراكس) الذي سموا به قبيلة أخرى منهم.

والشراكسة معروفون عند المؤرخين العرب باسم (سركس) أو (سراكس).

وأما أصل الشركس فإن علماء الأجناس يقولون: إن الشراكسة من أقدم الشعوب التي وجدت في هذه المنطقة، وقد حافظوا على قوميتهم

ومميزاتهم القبلية حتى العصور الحديثة، ولم يندمجوا في الشعوب الأخرى رغم اندماج بعض الجماعات بهم، من الذين وصلوا إلى بلادهم، وسكنوا معهم فيها، وإن كان عددهم قليلاً.

وذلك على كثرة المغيرين على بلادهم، والفاتحين لمنطقة القوقاز، وقد صبر الشراكسة وصابروا على ذلك، وصدوا عنهم محاولات المسخ والإذابة لكي يبقى نسلهم خالصاً من شوائب الانضمام إلى أجناس أخرى.

وربما كان السبب في بقائهم على هذا النقاء العنصري رغم ما عانوه من فظائع الحروب، وما لاقوه من غزوات المغيرين والفاتحين راجعاً إلى طبيعة بلادهم المنيعة، وشجاعتهم واستبسالهم في مقاومة أعدائهم.

ولكونهم يعتقدون أنهم الأنموذج الأكمل للرجل الأبيض، ولذلك يرون أن غيرهم ممن غزوهم أقل منهم منزلة، لذلك ترفعوا عن الاختلاط بهم، حفظاً لعنصرهم الممتاز.

وكذلك بقيت لغتهم مصونة من الدخيل عليها كما يقرر ذلك علماء اللغات.

كما أن لهم عادات وتقاليد عريقة غير مدونة في الكتب، ولكنها مرعية التنفيذ عندهم، ومعمول بها منذ أزمان متطاولة.

دخول الشركس في الإسلام:

بدأ ظهور الإسلام في القوقاز سنة ٢٢ للهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، الموافقة لسنة ٦٠٠ ميلادية على يد مجاهدي العرب الذين جاؤوا لجنوب القوقاز وبلاد الكرج، واسسوا حكومة عربية إسلامية، ودام حكمهم أربعةقرون.

وأول من أسلم وقبِلَ الإسلام ديناً من اهل القوقاز شعب الكرج، وبعدهم الداغستانيون (اللزكى)، ومن ثَم انتشر الإسلام غرباً إلى بلاد القبرداي، ثم كان الفضل في انتشار هذا الدين الحنيف بين الجراكسة عموماً إلى أمراء القرم الذين دعوا له ونشروه في طول منطقة القوقاز وعرضها.

واهم من كرّس جهده في خدمة الدين الإسلامي الأمير (عادل كراي) الذي استدعى العلماء المسلمين من القرم، وأرسلهم إلى بلاد الجراكسة لتعليم الدين، وأسس المدارس والمساجد، وصاهر القبرداي، وحببهم في دين الله، وانتصر للإسلام فأطاعته القبائل، ودخلوا في دين الله زرافات ووحداناً.

وجاء بعده علي فرح باشا سنة ١١٩٥هـ، المعين والياً من قبل الدولة العثمانية، وجلب العلماء من الآستانة، وبنى المساجد، وجعل من (إنابا) عاصمة للولاية، ومدينة إسلامية، ومركزاً رئيسياً للدين الحنيف، ومنها انتشر في سائر أنحاء القوقاز.

والخلاصة: إن الشراكسة عموماً تمسكوا بأهداب الإسلام، وأصبحوا متعصبين لدينهم، مشهورين بإيمانهم وتقواهم، محافظين على السنن والفروض، كما صاروا ينظرون إلى اللغة العربية بعين الاعتبار والاحترام، ويعتبرونها لغة الدين والأدب، ويكتبون بها كتبهم.

ونبغ منهم في العلوم الدينية الكثيرون، وظهر منهم من يشار إليه بالبنان.

ويلاحظ على الشراكسة عموماً التمسك بالدين والتعلق بالخلافة الإسلامية والارتباط بأهدابها.

هذا وسوف تأتي أحاديث عديدة عن الأحوال الإسلامية في هذه البلاد في تضاعيف المشاهدات، عندما نجول في بلاد (الإديغي) هذه بإذن الله.

وكان معي في هذه الرحلة الإخوة: الدكتور عدنان خليل الباشا

المسؤول عن التعليم في رابطة العالم الإسلامي، والأستاذ رحمة الله بن عناية الله مدير إدارة الدراسات في الرابطة، والأستاذ حسن علي إزميرلي من المختصين بالبحث في أحوال المسلمين في المنطقة.

مكة المكرمة

المؤلف

محمد بن ناصر العبودي

يوم الجمعة ١٩ /١ / ١٤١٤هـ، ٩/٧/ ١٩٩٣م.

من سيمفربول إلى سوتشي

غادرنا مبنى المطار في مدينة (سيمفربول) عاصمة القرم مع مضيفة أرضية خصصها المسؤولون في المطار للعناية بنا حتى نركب في الطائرة لكوننا ضيوفا أجانب، يحمل بعضنا جوازات سفر سياسية.

وتقدمتنا المضيفة إلى الطائرة من دون أن نمر بأية إجراءات، أو ندخل مبنى المطار إلى قاعة الترحيل قرب الباب الخارجي مما يلي المدينة، ولم نمر بالجوازات ولا بالمكس (الجمرك)، ووصلنا الطائرة على أقدامنا، فتكلمت المضيفة مع مضيفة في الطائرة وأخذنا أماكننا قبل الركاب بفترة كعادتهم في إركاب الضيوف الأجانب.

إن كوننا لم نمر بأية إجراءات في المطار أمر قد يكون طبيعيا قبل انفراط عقد الاتحاد السوفيتي، أما الآن وبعد أن استقلت أوكرانيا التي تتبعها بلاد القرم، وصار السفر إلى جمهورية روسيا سفرا إلى بلد آخر، فإن الأمر يثير الاهتمام، بل الأغرب أن الأوكرانيين لم يختموا جوازاتنا بالمغادرة، ولا أخذوا رسم سمات الدخول من زميلين لنا لا يحملان جوازات سياسية.

لا سيما أن قنصلية روسيا في جدة قد أعطتنا نسخة مما أسمته تعليمات بالدخول والخروج من جمهورية روسيا الاتحادية إلى الدول المجاورة ذكرت فيها أن الدخول من المنافذ البرية والجوية والبحرية في جمهورية أوكرانيا إلى روسيا يحتاج إلى سمات دخول.

هذا والطائرة نفاثة من طراز توبوليف ١٥٤، وهو طراز روسي الصناعة، ورغم ما ذكر لنا شفهيا من كون الطائرة تابعة لأوكرانيا فإنه ليست عليها كتابة تدل على ذلك، وإنما كتبت عليها العبارة القديمة (أيروفلوت)، وهو

اسم شركة الطيران السوفييتيّة السابقة.

ولا شك أن هذا كله مظهر من مظاهر الانفلات الإداري بعد الهزة التي لم يستطيعوا أن يتكيفوا معها، وهي سقوط النظام الشيوعي، واستبداله بنظام اقتصاد السوق الحر الذي لم تكن لديهم مؤهلات إدارية ولا استعداد كافٍ للانتقال إليه بسرعة.

امتلأت الطائرة أو كادت بالركاب، وكلهم ذو مظهر أوروبي أشقر، لكونهم بين روس يعيشون في القرم، أو روس يعيشون في جمهورية روسيا الاتحادية، ولا يمكن تمييز الأوكرانيين منهم إلا لخبير.

قامت الطائرة في الساعة الواحدة إلا الربع ظهراً، وكان إعلانها بالروسية والأوكرانية مما لم نفهم منه شيئاً، وحتى المنطقة لم نلق عليها نظرة من الطائرة لأن زجاج النافذة في الطائرة لم يكن صافياً.

وسارعت المضيفات، وهن ثلاث، بتقديم الضيافة وهي فنجان صغير من الماء المعدني المفعم بالغاز، وهم يضيفون إليه الغاز إضافة، و مثله في شراب الفاكهة، وهذه هي كل الضيافة في هذه الرحلة التي بدأت في وقت الغداء وتقاضوا منا ٨٥ دولاراً بالعملة الصعبة لقاء كل تذكرة.

وأعجب لثلاث مضيفات ليس لهن من عمل إلا تقديم نصف كوب من الماء أو من شراب الفاكهة، ولا نقول عصير الفاكهة، لأنه شراب مخفف.

ومن العجب أيضاً أن الأشخاص الذين لم يسارعوا إلى رشف هذه القطرات من الفنجان قد تركن الفناجين الفارغة معهم دون أن يأخذنها.

استمر طيران الطائرة فوق مياه البحر الأسود التي بدت سوداء لارتفاع الطائرة وعدم صفاء زجاج النافذة، واستمر الطيران بدون إمتاع، حتى قاربت الوصول فتدنت وهي تتدلى فوق مياه البحر، بحيث لم نكن نرى أي معلم من

معالم الأرض.

ثم لاح الشاطئ على البعد، وأهم منظر يلاحظ فيه مياه نهرية تصب في البحر، فتحيل لون مياهه إلى اللون الأغبر، وهو لون الشاي المخلوط بالحليب تقريبا، إلى أن تضيع في مياه بعيدة عن الشاطئ مثلما يضيع المعروف عند اللئام.

وأما الأرض فإنها الخضرة، خضرة مطبقة، وأما البيوت فإنها بيوت مسنمة، مما يدل على أن المنطقة مطيرة صيفا، وثالجة شتاء، مثل منطقة القرم التي غادرناها.

في مطار سوتشي:

لامست عجلات الطائرة أرض المطار أو كادت، فكان منظر المدرج جميلا، إذ تحيط بها الخضرة الندية، ومجرى نهير صغير كدر المياه لا يفصله عن المدرج إلا فاصل طيني ضيق، وتبين من لون مياهه أن أمطارا غزيرة كانت قد سقطت على المنطقة قبيل قدومنا.

وما شبهت الأعشاب المحيطة بمدارج المطار، والمنتشرة في الأرض القريبة منه إلا بالحقول الريانة، وهي بلا شك ريانة من مياه الأمطار، ولكنها ليست حقولا مزروعة.

وزان المنطقة منظر تلال خضر تطل على المطار، ولكنها لا تحاصره، وقد كستها أشجار الغابات، وأشجار الظل، وانتشرت فيها منازل ذات سقوف مسنمة، ولكن هذه البيوت ليست جميلة جمال المنطقة الطبيعي كما أن المنطقة ليست مجملة، وإنما جمالها طبيعي.

وخلف تلك التلال كانت جبال ترى على البعد هي بلا شك جزء من

جبال (القوقاز) الواسعة.

إذ المعروف أن القوقاز واقع بين بحرين هما بحر الخزر المعروف الآن ببحر قزوين من جهة الشرق، والبحر الأسود هذا الذي كان أسلافنا العرب يسمونه بحر ينطس، من جهة الغرب، ولاحظت أن ساحات وقوف الطائرات ليست من الزفت، وإنما هي مصبوبة من مربعات إسمنتية كبيرة، وربما كان ذلك لكونها أصبر على مقاومة ثلج الشتاء من الزفت، واسترعى انتباهي منظر طائرة متوقفة فوق العشب الأخضر مما يدل على أنها متعطلة، وأن القوم ليسوا في عجلة من أمرهم لإصلاحها، لأن لديهم مزيدا من الطائرات التي ورثوها من عهد الاتحاد السوفيتي أقل كلفة في صيانتها من هذه، ولذلك رأينا المطار مليئا بطائرات مختلفة الأحجام.

وهذا كنت رأيت مثله في مطار (ألما أتا) عاصمة جمهورية (قازاقستان) قبل حوالي السنتين، وكان هبوط الطائرة في مطار (سوتشي) هذا في الثانية إلا الثلث بعد طيران استمر ٥٥ دقيقة، ولاحظنا أن المطار واسع، كثير الطائرات كما تقدم، إلا أنني لاحظت وجود طائرات صغيرة عديدة في ركن منه من ذوات المحركين، وهي التي تسافر للقرى والمطارات الصغيرة، أو تستأجر للبلدان التي ليس لها رحلات منتظمة، مع أننا رأينا بعد ذلك أن العديد من مدن القوقاز المهمة التي هي عواصم جمهوريات ذات حكم ذاتي، ليس فيها مطارات، ولا تصلها حتى هذه الطائرات الصغيرة كما سيأتي.

وحتى أبنية المطار متعددة، وليست مبنى واحدا، وكل مبنى أمامه ساحة وقوف للطائرات، ومن أجمل ما رأيته وأنا أتأمل المطار والطائرة لا تزال تدرج فيه، وقد استمرت فترة قبل الوقوف، منظر جانب من هذه الربى الخضر التي تطل على المطار وتوشحها الغيوم البيض المنخفضة.

عندما وقفت الطائرة لم يتحرك أحد من الركاب؛ لأنهم يعرفون أن من

عادتهم ألا يسمحوا لأحد من الركاب أن ينزل من الطائرة قبل أن ينزل الطيارون جميعهم، وقد مروا من عندنا ، وهم أربعة لاحظت أن أحدهم كهل ذو شعر أبيض.

وقبيل أن ننزل من الطائرة قالت المضيفة بالإشارة: انتظروا أمتعتكم، وكانت المضيفة الأرضية التي أركبتنا في مطار (سيمبرفول) قد أخبرتها أننا ضيوف كما قدمت، ومن عادتهم ألا ينزلوا أمتعة الركاب إلا في الرحلات الدولية، وعلى كل راكب أن يأخذ متاعه سواء كان حقائب أو غيرها بنفسه من الطائرة.

وهذه عادة لهم قديمة ظننا أنها تغيرت بعد أن تغير نظامهم الشيوعي، ولكن تبين أن الأمر ليس كذلك.

وقفنا في الأرض عند سلم الطائرة، وجاءت مضيفة أخرى، وقالت: يجب أن تنتظروا أمتعتكم هنا. وأمتعتنا ثقيلة، وهي ثمان قطع لا يمكن لنا حملها، فوقفنا فترة في هواء ملوث من طائرات قريبة تدور محركاتها، ونحن في حيرة من أمرنا.

ثم جاءت إلينا مضيفة أرضية أخرى يظهر أن مضيفة الطائرة أخبرتها خبرنا، وأمرتنا بالانتظار أيضا، وتبين لنا أنهم يبحثون عن أحد الموظفين الذين ينزلون أمتعتنا من الطائرة لأنه لا يوجد حمالون لهذا الغرض، ويريدون إكرامنا بعدم تكليفنا إنزال الأمتعة بأنفسنا.

عندما أبطأ الأمر علينا ذهبت المضيفة التي كانت واقفة معنا، وجاءت أخرى أمرتنا أن نذهب معها دون أمتعتنا إلى مبنى من مباني المطار، ودخلناه فوجدنا فيه عددا من العاملات اللاتي لا عمل لهن، وكل واحدة تدفع العناية بنا عن نفسها إلى صاحبتها، حتى رضيت إحداهن بأن تذهب معنا إلى مبنى

آخر قريب.

أدخلتنا فيه وذهبت، ونظر إليها الذين فيه باستغراب مع أننا نلبس الملابس (الأفرنجية) وتبين بأنه مقهاة صغيرة يريدون أن ننتظر فيها.

وكنا نظن أنه قاعة كبار الزوار أو قاعة الوصول، وتبين أيضا أن بابه مفتوح من دون موانع إلى جهة المدينة، وأنه لا توجد مكاتب للجوازات ولا (الجمارك) ولم يسألونا عن سمة الدخول ولا غيرها.

وبعد قليل جاء أحدهم يحمل أمتعتنا وحدها ليس معها شيء من أمتعة الركاب الآخرين على عربة تشبه الجرار الزراعي، فنفحناه ما ينتظره منا من حلوان (بخشيش) هو يستحقه.

لا مستقبلين:

كان الإخوة في القرم قد أخبرونا أنهم أبرقوا برقية إلى مفتي المنطقة التي فيها (سوتشي) كما قالوا، لأنهم جهدوا في أن يكلموه بالهاتف فلم يستطيعوا بعد طول محاولة كما قالوا، وعندما ودعونا بالمطار قالوا: إن المفتي هناك سيكون في استقبالكم.

إلا أننا لم نر أحدا، وكنا نؤمل أن نجد من يرشدنا إلى الإخوة المسلمين في هذا البلد حتى لا يضيع شيء من وقتنا في البحث، كما كنا نأمل في أن يساعدنا على حجز غرف لنا في أحد الفنادق، والأصعب في الأمر أن اللغة التتارية التي هي موجودة في القرم، ويحسنها زميلنا في الوفد الأستاذ رحمة الله بن عناية الله غير مفهومة هنا، فالقوم لا يفهمون إلا الروسية التي لا يوجد معنا من يفهمها.

ورآنا سائق سيارة أجرة كبيرة أي ليست كسيارات (اللادا) الصغيرة التي تشبه (الفيات) الإيطالية، ولكنها من صنع روسي، وهي الشائعة في كل

أنحاء الاتحاد السوفيتي السابق، فجاء يعرض خدماته، فأفهمناه أننا نريد المسجد، فحاول أن يذهب بنا إلى الفندق فقلنا: إلى المسجد، وبدا أنه فهم منا، فحمل أمتعتنا كلها معنا، وذلك لوجود شبك من الحديد في ظهر سيارته.

وتبين لنا أيضا ما جربناه قبل ذلك، وهو أن هل هذه البلاد التي كانت معدودة من الإتحاد السوفيتي في السابق لا يعرفون كثيرا عن جيرانهم الأقربين في الاتحاد، وذلك لصعوبة السفر عليهم من الناحية المالية، ولصعوبة الحصول على المعلومات التي كانت حكرا على أناس معدودين في السابق، فلم يكن أهل القرم يعرفون أي شيء عن (سوتشي) هذه التي لا تبعد عنهم إلا بمسافة ٥٥ دقيقة بالطائرة، لا عن أحوال المسلمين ولا عن الأحوال العامة فيها.

في مدينة سوتشي:

سار السائق من المطار مع طريق لا بأس به، فهو مزدوج ولكنه ضيق، وتحيط به الأشجار المغروسة حوله إحاطة تامة، وهي خضرة ناعمة، وتنتشر البيوت في غير كثافة فيه، وفهمنا أن هذه البيوت التي بجانب المطار هي محلة من محلات سوتشي التي تبين أنها ممتدة في الجبال المطلة على البحر، إذ قلت البيوت بعد أن سار قليلا.

ثم صار الطريق جيدا يسير في الجبال محاذيا لساحل البحر.

واستطلنا سيره حتى وصل نفقا طويلا في الجبل ما لبث إذ خرج منه أن واصل ما كان فعله من قبل، وهو السير في طريق جيد في أعتاب الجبال حيث يهبط وينزل ولكنه معتنى به، والبحر غير بعيد على أيسارنا.

وكثرت المنازل وكثر المشاة، وهم في لباس الصيف من سائر الأعمار، فتبين لنا أن الشعب شعب أوربي خالص أي لا يخالطه مخالط من أجناس

أخرى، ولكنه شعب سلافي والسلاف يتميزون بجمال الخلقة، واعتدال الأجسام.

ويغلب الشعر الأصفر والأحمر هنا في رؤوس الناس على الشعر الأسود.

كما يلاحظ هنا كثرة السيارات في الطريق، وربما كان مرجع ذلك إلى كونه الطريق الوحيد في هذه المدينة الجبلية الممتدة في أعتاب الجبال على الساحل الذي هو ساحل البحر الأسود.



منظر مدينة سوتشي الروسية

وأما حالة الطريق فإنها جيدة إلى درجة تثير الإعجاب في هذه البلاد التي رأينا أكثر طرقها؛ بل أكثر أمورها مهملا في غير ميناء (سوتشي) هذا.

كان السائق يواصل السير ونحن في حيرة من أمرنا، وإذا أردنا أن نفهمه

شيئاً بالإشارة فهم على غير ما أردنا، فننفق وقتاً في تصحيح ذلك أو سحب الغلط فيه، حتى تركناه ولم نشعر بالقلق معه لأننا أربعة، ووجهه يوحي بالطمأنينة، ونحن نسير في أماكن مسكونة بل مليئة بالسيارات والمشاة، والمنازل كثيرة ولكن تخفيها الغابات التي تجلل الجبال.

وقف السائق عند أحد رجال الشرطة وسأله وهو يقول (مسجد) كما قلناه له فأشار الشرطي له إلى جهة تصعد الجبل، فصعد مع طريق ضيق، تكاد تخنقه الأشجار المحيطة به، مع أنه مزفت لا بأس به.

ثم سأل أناساً من أهل المنطقة فصاروا يشيرون إلى جهة ذهب معها حتى أوصلته الإشارة إلى مبنى تبين أنه ملحق بكنيسة!

ولما عرفنا أنه لم يعرف شيئاً قلنا له: اذهب بنا إلى الفندق.

وعدنا نسير في شوارع الجبل الأخضر الضيقة التي هي أسوأ ما فيه، مع عدم النظافة في الأماكن الداخلية التي نمر بها.

ومن ذلك أيضاً وجود مياه تتسرب من عدد من المنازل، وقد تكرر ذلك منها حتى اسود مكانها.

وصلنا إلى فندق ضخم جميل قرأنا اسمه بالحروف اللاتينية حسب اجتهادنا؛ لأن فيها حروفاً ليست موجودة بالإنكليزية، وإنما هي ألفاظ روسية، واسمه (زمخا زينا) وأجرة الغرفة فيه للشخص الواحد (٥٠) دولاراً أمريكياً مع الفطور يتقاضونها بالعملة الصعبة، وهو رخيص بهذا السعر بالنسبة إلى مستواه.

السمة لسوتشي:

لم يسألنا أحد عن سمة الدخول إلى روسيا في المطار، ولا عن سمة

الدخول لميناء (سوتشي) هذا، ولكننا عندما أردنا الحجز في الفندق وجدنا فيه امرأة تتكلم الإنكليزية موظفة فيه، فكأنما وقعنا على كنز، ثم تبين أنه يوجد غيرها ممن يتكلمون الإنكليزية، وذلك سعياً من الفندق لاجتذاب السياح الأجانب، قالت الموظفة: إنه يجب على كل أجنبي وصل إلى (سوتشي) أن يدفع ١٠ دولارات ثمناً لسمة الدخول التي سيحصل عليها في جوازه، إلا إذا كان قدومه لأقل من أربع وعشرين ساعة فإنه لا يحتاج إلى تلك السمة.

وعجبنا من كون الميناء الجوي الذي فيه المطار ليس فيه طلب للسمة، وحتى سائر البلد هنا إلا ممن سكن في هذا الفندق، ومكتب الحصول على السمات موجود في الفندق.

وعرفنا السبب في ذلك بعد ذلك، وهو أن أهل هذا الميناء قد حولوه إلى منطقة سياحية، وصاروا يبحثون عن الأمور المألوفة للحصول على المال، مع أنهم في غير هذا الأمر يتقاضون أسعاراً غالية عن خدمات الفندق القليلة النظير في البلدان الروسية.

أنزلونا في غرف في الطابق الثاني عشر، فوجدناها غرفاً نظيفة، لا بأس بأثاثها ورياشها، ووجدنا حماماتها جيدة فيها الماء الساخن والفوط المعتادة إلى جانب قطعتين من الصابون.

ولكل غرفة شرفة واسعة يمكن أن يجلس فيها النزيل يقرأ ويشاهد شاطئ البحر الأسود الذي تنهض منه الجبال الخضر، ويداعبه نسيم البحر العليل المعتدل في هذا المكان.

والحقيقة أننا عندما نزلنا في هذا الفندق خيل لنا أننا في بلاد غربية، وإن لم يكن فاخراً فهو في مستوى الفنادق ذوات النجوم الأربع، ولكن ذلك يعتبر شيئاً يستحق الذكر في هذه البلاد، لا سيما بعد فندقنا الذي كنا قد نزلنا فيه في (سيمبرفول) واسمه (فندق موسكوفا)، وهو أحسن فندق في

المدينة، ولكن كل شيء فيه عليه مآخذ، وجميع أسلاك الكهرباء الداخلية في الحيطان قد فسدت، فسلكوه تسليكاً رديئاً خارجاً عنها، والأبواب وصنابير المياه، وأبواب الخزائن الخشبية في ذلك الفندق كل ذلك خرب أو أصلح إصلاحاً ناقصاً بحيث يبدو كأن القوم لا يعملون إلا لشيء مؤقت، هذا كان في القرم.

وفي غرف فندق (زمخا زينا) هذه تلفاز ملون، وثلاجة جيدة، وسريران، وأهم ما أعجبني هذا التعانق الجميل بين البحر الأسود، والجبل الأخضر، ووصف البحر بالسواد هو وصف تقليدي، وأما وصف الجبل بالأخضر فإن ذلك حقيقي، وربما كان له اسم عند أهله غير ذلك.

وأسرعنا نتصل بمن لدينا هواتف لهم في مدن القوقاز القريبة، وبعد لأي اتصلنا ببعضهم وأفادوا بعدم وجود مطارات لديهم، وأن الوصول لهم يحتاج إلى قطع أربعمائة كيلو بالسيارة، وسيستغرق ذلك نحو ٨ ساعات، ولم تكن بنا طاقة على إنفاق هذا الوقت والجهد، فأجمعنا الرأي بعد ذلك على أن نسافر غداً بالطائرة إلى (كرسنا دار) ومن هناك نسافر بالسيارة (١٨٠) كيلومتراً إلى مدينة (ميكوب) عاصمة الإديغي الشركسية، وعادتهم في هذا الفندق هي كعادتهم التقليدية في الفنادق الروسية حيث يكون لكل طابق من الفندق مديرة مسؤولة عن كل ما يتعلق به تأخذ المفتاح من النزيل وتعيده إليه محافظة على أمنه الشخصي بعد أن تتعرف عليه.

أما المرأة المسؤولة عن الطابق الثاني عشر، وهي تعرف شيئاً من الإنكليزية خلاف المعتاد، فإنها تأخذ المفتاح من النزيل إذا أراد الخروج وتعطيه البطاقة التي أعطتها له الإدارة عند أول دخوله، فيها اسمه ورقم غرفته وسائر البيانات المتعلقة بذلك حتى إذا عاد للغرفة سلم البطاقة لها وسلمته المفتاح.

تمشية الأصيل:

أيسنا من الحصول على إجابة من كثير من الهواتف التي نحملها بعد محاولات عديدة، ووطنا أنفسنا على ضياع هذا اليوم رغماً عنا، وإن كنا نهون الأمر بأن ذلك لا بد منه للوصول إلى بلاد المسلمين، لأنه طريق طبيعي لذلك إلا لمن يملك وقتاً واسعاً يمكن أن ينتظر أياماً حتى يجد طريقاً أقصر، على أن نسافر غداً إن شاء الله.

وفي الأصيل انطلقنا في تمشية على الأقدام في هذه المدينة المنثورة على طول الشاطئ الملاصق للجبال، ولم يكن من الممكن القول بأننا رأيناها في هذه التمشية لكونها مستطيلة متباعدة، وإنما رأينا المنطقة التي فيها فندقنا وما حولها.



في شارع عند مدخل الفندق في مدينة سوتشي

وهي ذات منازل لا تكاد ترى بين الأشجار التي هي غابات في هذه الجبال، ما عدا ما يقع منها على الشارع العام الذي هو الطريق الممتد يحاذي الشاطئ.

ولكنها كلها تتسم بإرادة الجمال، بخلاف كثير من المدن الروسية التي أنشئت في العهد الشيوعي حيث لا يراعى الطابع الجمالي فيها، وإنما تراعى فيها المنفعة بالدرجة الأولى.

على الشاطئ الأسود:

هذا البحر الذي تقع عليه المدينة اسمه البحر الأسود، وسواده ليس في مياهه فهي كغيرها من مياه البحار الأخرى، ولكنها تسمية ذات سبب لا يشمل كل هذا البحر، مثلها مثل باقي البحار التي توصف بصفات من الألوان، كالبحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط.

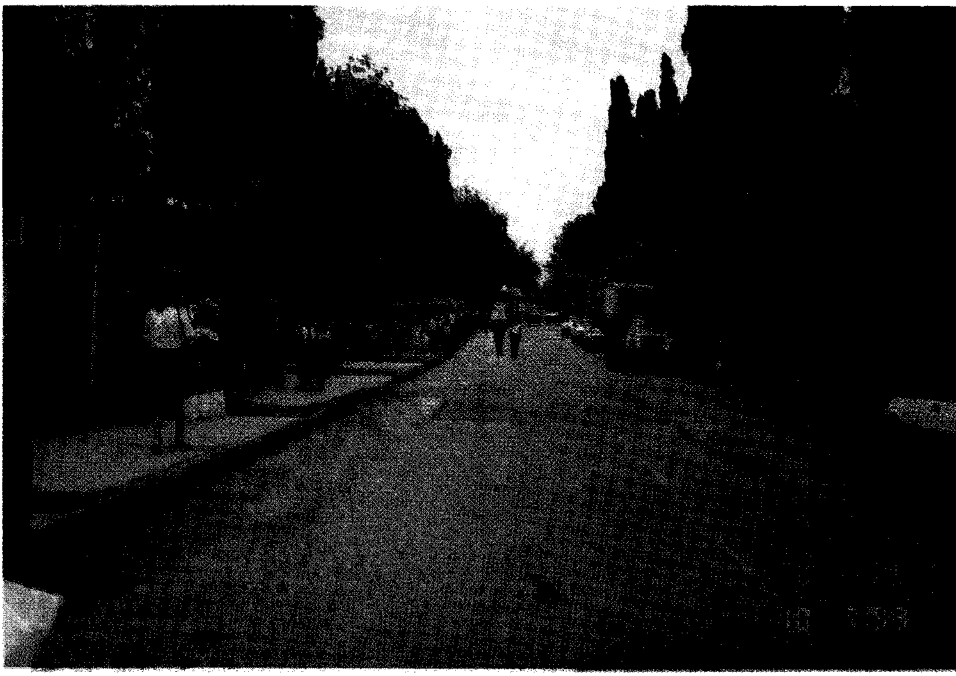
ولكننا رأينا اليوم شاطئ هذا البحر أسود يصدق تسمية البحر بالأسود، ويتفق معها بالنسبة إلى هذا الجزء من الشاطئ، فهو شاطئ ذو حصىً صغار سود لا يمكن الاستلقاء فوقه، بل يصعب السير فيه، وفيه رقعة صغيره أمام الفندق من الشاطئ جعلوها بمثابة شاطئ الاسترخاء للفندق ذات رمل رمادي، ولذلك أكثروا من السرر التي يستلقي عليها من يريد التشمس، لأنه يصعب الاستلقاء على أرض الشاطئ نفسه، حتى أن بعضنا قدر عدد هذه السرر بالآلاف.

وذكرت بهذه المناسبة شواطئ البرازيل الرملية الذهبية التي تغسلها مياه البحر في كل عشية، فتراها إذا وقفت حولها ثم داعبتها الأمواج تهرب من بين رجليك، ثم لا تلبث أن تعود مرة أخرى مقبلة إليك، والناس ينامون فوقها أو يتمددون، وكأنهم على فرش وثيرة في قصر مصون.

وعلى ذكر الناس أقول: إننا رأيناهم في هذا الشاطئ أفواجاً بعد أفواج، ولكنهم ليسو سائرين على البحر، وإنما هم يتمشون في الطريق حوله، لأن

٦

السير على البحر صعب، وكلهم من الجنس السلافي الأوروبي الأشقر، وأكثرهم ليس على وجوههم طلاوة أو رونق من آثار النعمة، وإنما هو البياض وشقرة الشعر في أكثر الأحيان.



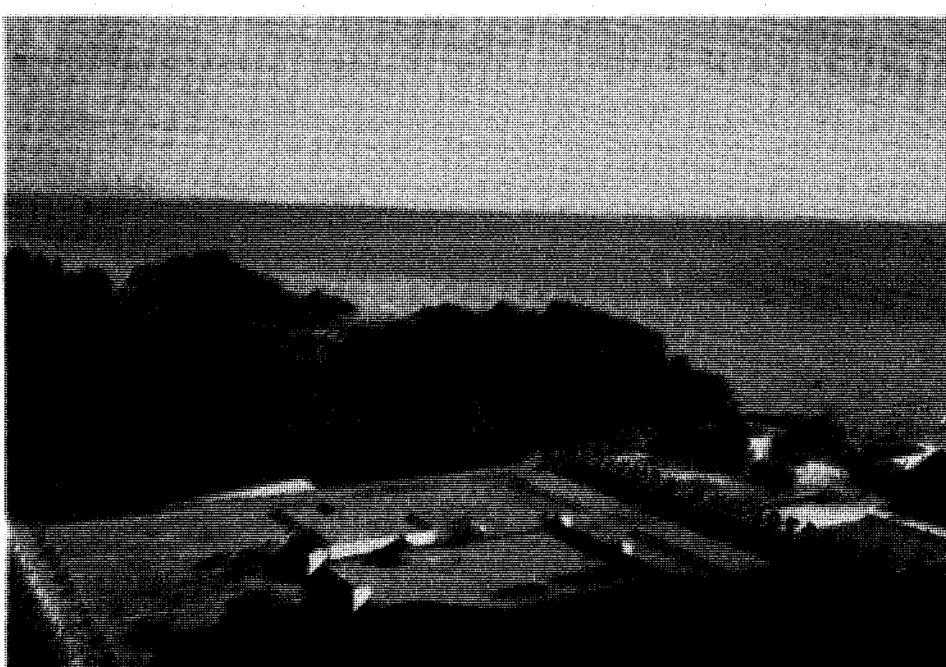
في أحد شوارع سوتشي في روسيا

ووجدنا مقصفاً على شارع الشاطئ، وكنا بحاجة للجلوس مع غروب الشمس، فجلسنا على أحد موائده المستطيلة، وهي من الصفيح الصدئ الخشن الملمس، تخشى أن تمسها يدك لخشونتها وسوء مظهرها، مع أن الطبيعي أن تستند إليها كما تستند إلى أية مائدة تجلس إليها.

وبحثت في ذهني عن تذكر مائدة خشنة جلست إليها في أي مكان من العالم المتخلف، فلم أر مثلها على طول ما سافرت في أنحاء العالم المتخلف وكثرة ما شاهدته، وتحت هذه المائدة ثلاثة من كراسي الحديد الخشن المتصلة بعضها ببعض.

ومن الغريب أنه في هذا الجو المادي الخشن لا بد لمن يريد أن يشرب شيئاً من المقصف أن يذهب بنفسه إلى داخل الإدارة أو المخزن، ويدفع النقود ويحضره بنفسه، وبضائعهم التي تشرب قليلة التنوع، وكنا بحاجة إلى شربة ماء نقية خالية من الغاز، فلم نجد عندهم شيئاً من ذلك، وإنما هي الأشربة الغازية المعتادة كالكوكا كولا والفانتا والميرندا.

ومما أكمل هذه الصورة غير السارة أننا رأينا غير بعيد من هذا المقهى (مباول)، جمع مبولة، وهي التي يبال فيها، وهي من الصفيح واقفة على الأرض إلا أن أسفلها يرى واضحاً، وفيها سطول، جمع سطل، في أسفلها رمل لا أدري لم وضعت هنا، وهذه على هيئة محراب صغير يدخله الداخل من دون باب، ولكن مدخله فيه ستر من الصفيح أيضاً هو جزء من المحراب!!!



ميناء سوتشي من شرفة الفندق

وأما الجو الآن فإنه بديع لا حر فيه، كما أن برده أقل من برد (القرم) التي وصلنا منها في هذا الصباح.

ولا غرو في ذلك لأن هذه المدينة (سوتشي) وما يلحق بها هي من مناطق الانتجاع في الاتحاد السوفيتي السابق، يأتي إليها المصطافون من بلدان روسيا الشمالية ليستمتعوا بجوها، وليختزنوا في أجسامهم من أشعة شمسها ما تقتات به في رأيهم طيلة فصل الشتاء المظلم البارد.

عشاء الفندق:

حان وقت العشاء، ولم نكن تناولنا الغداء، فنزلنا إلى مطعم الفندق وهو واسع كبير يتناسب مع سعة الفندق، فطلبنا سمكاً مشوياً، فاعتذروا بأنه لا يوجد عندهم سمك مشوي، وإنما هو المقلي، قالت لنا ذلك واحدة من عاملات المطعم تتكلم الإنكليزية، فطلبنا منها أن ترينا الزيت الذي يقلى به السمك، فأحضرته فإذا به زيت (دوار الشمس)، فأمرناها أن لا تضيف إليه أي شيء آخر من أنواع الدهون، وأن تبتعد عما مسه دهن الخنزير من أوانٍ أو أدوات.

وكل هذا من باب الاحتياط، وإلا فإننا لا نعلم إن كانوا يفعلون ذلك، ولكن العاملة كانت واسعة الصدر معنا، لأنها قد تعودت على معاملة الأوروبيين والسياح، فجاؤوا بالسمك والسلطة وخبزهم الخشن وبطاطس صليق أي مسلوق، ثم الختام من (الآيس كريم).

وطلبت ثمن الوجبة الواحدة للشخص الواحد خمسة دولارات أمريكية.

وهذا رخيص بالنسبة إلى البلدان الأوروبية، ولكنه مبلغ كبير بالنسبة إليهم، ولذلك لم نر في الفندق إلا قلة من الرواد، مع أنه نظيف واسع بالنسبة إلى المحلات العامة في هذه البلاد.

يوم السبت: ٢٠/ ١/ ١٤١٤هـ.

كان إفطار الفندق في مطعم خاص بالفطور جئنا إليهم في السابعة والثلث، فذكروا أنهم لا يبدؤون في تقديمه إلا في السابعة والنصف، فوقفنا قليلاً ثم تناولنا طعام الإفطار جيداً منوعاً، فيه نوعان من الخبز وبيض وحليب وعسل وزبد ثم الشاي، وهذا شيء لم نعهده في فنادقهم، ولكنهم قد هيأوا هذا المكان ليكون منتجعاً يجتذب لهم من الأوروبيين من يكون سمين الجيب، محباً للاطلاع على هذه البقاع التي كانت شيوعية.

وأما بالنسبة إلينا وسائر النزلاء، فإن الفطور بالمجان داخل في إيجار الغرفة.

هذا وقد هاتفنا اليوم أحد الأشخاص في مدينة (ميكوب) عاصمة جمهورية الإديغي الذين هم الشركس الأصلاء، فذكر أنه لا يوجد في المدينة مطار، وأن المسافة إليهم هي أربعمائة وخمسون كيلومتراً، وأن الأفضل أن نسافر جواً إلى (كرسنا دار)، ومن هناك نسافر بالطريق البري إلى (ميكوب) لأن المسافة بينهما لا تزيد على ١٨٠ كيلومتراً.

فذهبنا إلى المكتب الرئيسي لمؤسسة الطيران الروسية (أيرو فلوت) على سيارة أجرة طلب سائقها ألفي روبل أجرة، ويعادل هذا دولارين أمريكيين، وهي من سيارات الأجرة الواقفة أمام هذا الفندق، إلا أننا عند الرجوع ركبنا مع سيارة أجرة مارة بالطريق، فحملنا إلى الفندق بستمائة روبل، أي أقل من ثلث الأجرة التي أخذها صاحبه مع أن المسافة واحدة.

وجدنا مكتب (أيرو فلوت) في مكان جيد غير واسع من بناء عالٍ هو واحد من أبنية ذات طوابق عالية، وحوله حوانيت صغيرة من الخشب فيها بضائع قليلة ليس فيها ما يسترعي الانتباه، وإنما هي ملابس جاهزة وأحذية رديئة وأحزمة وأوان صغيرة في كل حانوت جزء منها، وهذه الحوانيت هي

شخصيـة، أي هـي ملـك لأربابـها، وليسـت كـالمحلات الكبـيرة حكوميـة تديرها الدولة، وكلها مقامة من الخشب كأنما أنشئت على عجل.



منظر في سوتشي على شاطئ البحر

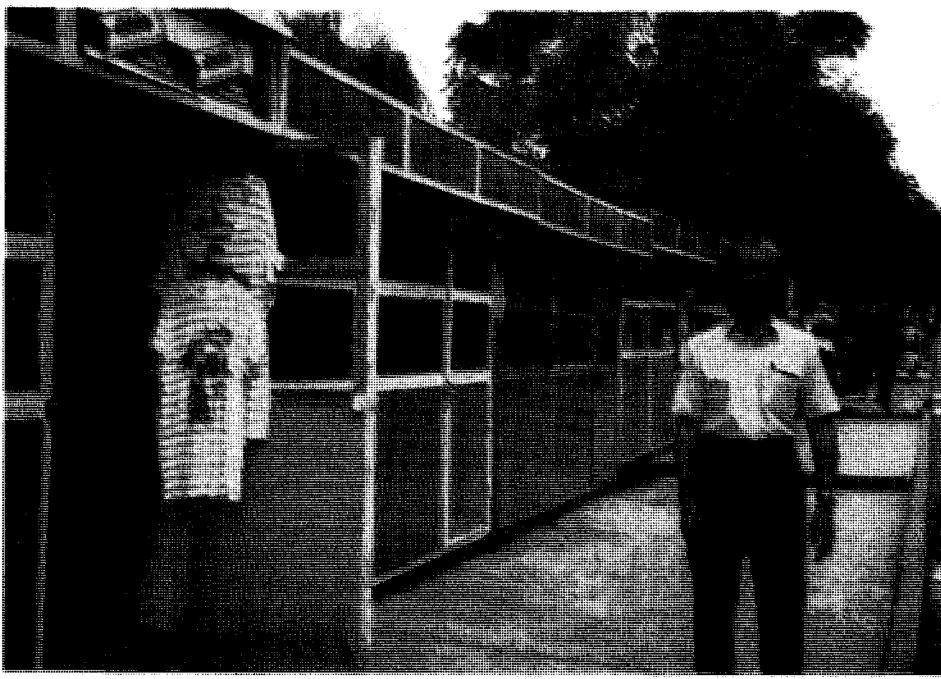
وذلك في جو كله يوحي بالفخامة، فالشارع ذو أرصفة جيدة قد غرست فيه الأشجار الباسقة المنسقة خلفها (العمارات) العالية الحسنة المظهر.

وأجمـل مـا فيـها بُعـد (العمـارات) هـذه عـن الطريـق بعـداً نسـبياً، فلـم يجعلوهـا تضـايق الطريق مـع قلـة السـيارات عندهـم قلـة نسـبية، فكـأن مـن يكون هنا إنما هو ساكن في الريف.

وذلك خلاف بعض البلدان التي يبني أهلها المنازل و (العمارات) في الشوارع الضيقة، ولا يتركون بينها وبين الشـارع إلا فراغاً ضيقاً، أو لا يتركون شيئـاً

من الفراغ.

واشترينا من مكتب الطيران هذا تذاكر من (سوتشي) إلى (كرسنا دار) كل تذكرة بـ ٥١ دولاراً تقاضوها بالعملة الصعبة.



المؤلف عند الدكاكين الشعبية في سوتشي

مغادرة سوتشي:

استأجرنا بوساطة الفندق حافلة صغيرة يسمونها (ميكرو باص) بخمسة دولارات إلا ربعاً، وكان صاحب سيارة الأجرة الذي أحضرنا في هذا الصباح قد تقاضى أجرته عشرة دولارات.

حملتنا هذه الحافلة الصغيرة مع أمتعتنا الكثيرة، ولو كان معنا مثلنا لما ضاقت بهم، وسائقها روسي أصيل مثل سائقي سيارات الأجرة هنا،

والغالب عليهم التمهل في السير، والتأني في أكثر أمورهم.

وكنا خرجنا مبكرين، فكان لدينا وقت طويل، فسار بهدوء مع الطريق المعهود الذي ينتقل في أعتاب الجبال ما بين أقدامها التي تكاد تغوص في البحر، إلا ما ارتفع أو نزل عن ذلك قليلاً، ولا تكاد تفارقنا رؤية البحر سيراً ممتعاً، لولا أنه لا يعرف أي لغة أخرى غير الروسية، وليس معنا من يعرف منها شيئاً.

وكان خروجنا من الفندق في الحادية عشرة ضحى مع أن موعد الخروج عندهم هو الثانية عشرة، ولكننا أحببنا التبكير حذراً من التعرض للتأخير في المطار.

وسألته عن مسافة هذا الطريق الذي يتأنى فيه فذكر أنها ٣٣ كيلومتراً إلى المحلة التي فيها المطار كما فهمنا منه.

وهذه المنطقة التي يشقها الطريق هي ريفية حضرية، وهي جبلية بحرية، وهي معمورة بالسكان إلا أن المرء لا يكاد يرى بيوتهم من بين الأشجار، لذلك يعجب من كثرتهم في الطريق، وأما السيارات التي تسير في الطريق فإن أكثرها سيارات الركوب الصغيرة الروسية الصنع من طراز لادا، الذي يشبه (فيات) الإيطالية، ومعه أطرزة أخرى روسية قليلة مثل (الفولقا)، وبعد سيارات الركوب تأتي في العدد الحافلات التي تنقل الركاب قد بنوا لها محطات بالإسمنت المسلح، وهي مسقوفة محاطة بجدران إلا من الجهة التي تقف عندها الحافلة، وقد زينوا جدرانها بالرسوم.

ولاحظت أن رجال الشرطة موجودون في هذا الطريق بشكل ظاهر مثل ما هي عليه الحال في القرم، وتجاوزنا عدة جسور على الوديان ومسايل المياه الآتية من الجبال، ذاهبة إلى البحر.



في الطريق بين الفندق والمطار في سوتشي

ومما يجدر ذكره أن هذه الحافلة الصغيرة التي استأجرناها هي حكومية تابعة لمصلحة السياحة، ولذلك كان سيرها وئيداً، وعندما وصلنا المطار لم يسارع سائقها بالبحث عن راكبين، بل وقف ناحية، وبلغنا أن سرعة السيارات محددة عندهم في أماكن كثيرة بـ ٤٠ كيلومتراً في الساعة يعاقبون من تجاوزها، وبعضها بأكثر من ذلك.

لا مسجد في سوتشي:

عندما وصلنا سوتشي حاولنا أن نعرف من الذين يتكلمون الإنكليزية في الفندق ما إذا كان يوجد فيها مسجد أو مركز إسلامي فنفوا ذلك، ووجدنا رجلاً شركسياً عربياً، فذكر أنه لا يوجد فيها مسجد، وإنما

المساجد كما قال في بلاد الشركس خلف الجبال الغربية للقوقاز.

ومع ذلك تأكدنا من هذا الأمر من الإخوة الذين هاتفناهم في (ميكوب) وغيرها من البلدان البعيدة عنها.

هذا مع العلم أنه وإن كان الأكثرية من سكانها هم من الروس، فإن فيها نسبة من المسلمين بلا شك نظراً لكونها متصلة ببلاد القوقاز التي يغلب المسلمون على سكانها على وجه العموم، ولكن المسلمين قد أصبحوا الآن مجرد أسماء لأشخاص غير ملتزمين بالإسلام، وإن كانوا يعتزون به ولا يبغون بمجرد الانتماء إليه بديلاً.

لأن التربية الشيوعية الإلحادية قد أثرت فيهم، وأفرغت مفهوم (مسلم) من محتواها عندهم إلا من ناحية كون ذلك أشبه بالهوية المميزة لهم.

هذا والحافلة الصغيرة تسير بهدوء ظاهر على هذا الطريق، والجو اليوم أحر من أمس، وبخاصة لمن لا يتعرض للهواء لأن الهواء بحري معتدل، ولذلك لم نجد في الفندق السياحي الكبير الذي نزلنا به أي شيء لمقاومة الحر، فلا مكيفات، ولا مراوح، وإنما انحصر ما فيه لمقاومة البرد الذي يتمثل بالمدافئ، وازدواجية نوافذ الغرف حيث تكون النافذة ذات زجاج بعده فراغ، بعده زجاج آخر.

ومررنا بعدة محلات عليها أسماؤها الروسية التي كتبوها بالحروف السيريليه المعروفة بالروسية، فصارت ظلاماً على ظلام، لأننا لا نعرف تهجئتها فضلاً عن معانيها.

وأما الطريق فإن أكثره مزدوج مؤلف من جزأين أحدهما للذاهب والآخر للآيب، يفصل بينهما فاصل من الأعشاب النامية بينها أعمدة النور، وأحياناً تكون فيها أشجار واقفة من الأشجار المستقيمة ذات الشكل

الأسطواني.

وقبيل الوصول إلى المطار اتسعت الأرض ما بين البحر والجبال، ومررنا بدوار، وهو الدائرة في الطريق تدور بها السيارات.

وعندما وصلنا أحد مباني المطار ذهب السائق يسأل عن مبنى المغادرة إلى (كرسنا دار) وكنا دفعنا للفندق أجرة الحافلة مقدمة، ولكننا أعطينا السائق شيئاً بمثابة الحلوان (البخشيش)، فانحنى بالتحية وأظهر الامتنان.

وقالت موظفة في المطار: إننا لن نتسلم أمتعتكم إلا في الواحدة، وكنا الآن قبيل الثانية عشرة، ولم نر زحاماً في المكاتب وتبين أنهم يرحلون الأجانب من مكتب غير مكاتب ترحيل المواطنين.

جلسة في المطار:

أرشدونا إلى مكان فيه مقاعد في المطار، فاسترحنا فيه ومعنا أمتعتنا، ولم نر سيوراً متحركة في المطار كالتي تكون في المطارات الأخرى منذ أن غادرنا إسطنبول، وإنما يأخذ المسافر متاعه بيده عند الترحيل والوصول، وأما بالنسبة إلينا وأمتعتنا كثيرة ثقيلة، ولا نستطيع حملها، فإنهم يجاملوننا بأن يندبوا أحد الموظفين فيتكفل بذلك، ونعطيه من الحلوان ما يرضيه.

ومن الطريف أنهم قطعوا قسيمة التذكرة، وسجلوا أسماءنا في الركوب قبل أن يتسلموا الأمتعة أو يزنوها، ودخل أحدنا الحمام في المطار فرآه قذراً كالعادة ليس فيه ماء ولا مناشف، إلا حوض ماء عند الدخول أو الخروج لغسل الأيدي، ولاحظ أنهم وضعوا في المكان المخصص للرجال صحناً من اللدائن قد انكسر وذهب نحو نصفه من أجل أن يكون بمثابة سلة المهملات.

والغريب العجيب هنا هو قلة الشكوى حتى من الذين نعرف لغتهم من

الإخوة المسلمين، لأنهم اعتادوا على ذلك وقال أحدهم: لمن يشتكي الناس؟ أيشتكون للحكومة وهي التي يشتكى منها؟

ولا شك أن الموضوع أعمق من ذلك، وأن السبب هو أن الناس كانوا قد عاشوا طويلاً أي مدة ٧٣ سنة في حكم شيوعي ظالم صارم لا يسمع شكوى لشاكٍ، بل إن الشكوى تفسر على أنها تذمر من النظام أو مؤامرة عليه، لذلك يؤثر الناس السكوت على الشكوى.

ولشيء آخر، وهو أن الناس قد ألفوا ما هم عليه، وربما ظن بعضهم أنه ليس في الإمكان أحسن مما كان على حد تعبير بعضهم، ولم يعرفوا أن هناك أشياء أحسن مما هم عليه، إلا أنهم لم يكن يسمح لهم بالسفر خارج الاتحاد السوفيتي، وبالتالي رؤية ما كان الناس عليه خارج بلادهم.

وقد أصابنا القلق حينما تأخر تسلم الأمتعة، ثم بعد مراجعات ومداولات معهم قبلوا أن يتسلموا الأمتعة.

والغريب هو كثرة الموظفين والموظفات وقلة إنتاجهم، وكل واحد منهم يريد أن يتولى غيره ذلك، إلا أن أحدنا أشار إلى متكلمة بالإنكليزية تكلماً ضعيفاً بأننا مستعدون بدفع أجرة خدمة لمن يحمل أمتعتنا، وهكذا فقد حملها إلى الميزان موظف حسن المظهر، أي ليس فراشاً أو عاملاً؛ لأنه لا يوجد فراشون هنا أو حمالون بصفة رسمية ووزنها بنفسه، وقام بإخراجها من باب المبنى حيث ساحة وقوف الطيارات، ثم أحضر جراراً حملها به إلى الطائرة، وأعطيناه ما أرضاه مقابل ذلك من دون أن يحدد شيئاً.

وقد أخذوا منا ثلاثين دولاراً مقابل الوزن الزائد في الأمتعة وهو (٥٧) كيلو، وهذا المبلغ ليس كثيراً؛ بل هو أقل مما توقعنا، مع أننا عند القدوم إلى هذا المطار لم يطالبنا مطار (سيمبرفول) بأي شيء لقاء الوزن الزائد.

ثم ذهبت معنا مضيفة أرضية أركبتنا قبل الركاب إلى الطائرة، وهي صغيرة من ذوات المحركين تحمل (٤٨) راكباً.

إلى كرسنا دار:

لم يملأ الركاب مقاعد الطائرة على صغرها، ولم يعلنوا عن مدة السفر ولا غير ذلك مما تعلن عنه الطائرات في المطارات الأخرى، وليس في جيوب الطائرة أي شيء من الأوراق أو المطبوعات التي تدل على ذلك، كما أن المضيفة لم تشرح للركاب التعليمات المتبعة في الطيران كالمعتاد.

غادرنا مطار (سوتشي) في الثانية وخمس دقائق ظهراً، أي بتأخير خمس دقائق عن الموعد المحدد في الأصل لقيام الطائرة، وهو تأخير لا يذكر، بل لا يعد تأخيراً في عرف شركات الطيران.

عندما قامت الطائرة كانت تطير فوق الشاطئ الأخضر الذي تنهض منه الربى الخضر الجميلة، ثم صارت فوق البحر، ثم ساحلت أي صارت تطير فوق الساحل الجبلي الذي تتناثر فيه منازل متباعدة.

ثم استقام طيرانها فوق ريف جبلي معمور، وكنت أتمنى أن ألتقط صورة لما أراه من مصورتي التي هي حاضرة بيدي، غير أن زجاج الطائرة محدب وغير صافٍ؛ لذلك لا يمكن أن تكون الصورة واضحة.

واستمر الريف الأخضر الذي صار يبدو بعد استمرار الطيران وحشياً، بمعنى أن خضرته غير مزروعة إلا في أماكن معينة.

وظهرت قطع الغابات، وزاد ارتفاع الجبال عند الاستمرار في الطيران أكثر، وهي قمم جبال القوقاز الغربية، وترى واضحة جهة اليمين من الطائرة، إلا أن أكثر هذه القمم الجبلية قد اختفت، أو اختفت أكتافها تحت

أردية من غيوم بيض.

ومررنا بنهر ينحدر من الجبال العالية في طريقه إلى البحر وسط منخفض شديد الانخفاض، ومع ذلك رأينا مياهه قليلة بالنسبة إلى سعة مجراه.

ثم انحرفت الطائرة قليلاً فصارت تطير فوق جبال متطامنة قليلاً قد خلت منطقتها من الغيوم، فبدت من فرط اخضرارها كأنما هي سوداء حالكة.

وما كرهت الغيم إلا في هذا الموطن وأمثاله حيث كنت أتطلع إلى هذا المنظر الجبلي الرائع الغريب على ذهني، فحال غيم لا أستطيع أن أقول: إنه متطفل على هذه المنطقة، فربما كنت أنا المتطفل عليه، ولكني أحسست بثقل ظله رغم كوني فوقه.

ولكن تجاوزته الطائرة إلى منطقة أخرى ذات غيم خفيف ما لبث أن تلاشى فوق أرض متسعة خضراء تتناثر فيها ربى متطامنة خضر، ويتدفق فيها نهر جم المياه.

والمؤسف أنه لا توجد في جيوب المقاعد خرائط للمنطقة التي تطير فوقها الطائرة، كما أن المضيفة قد قدمت الضيافة المعهودة، وهي نصف فنجان من الماء المعدني، ثم غابت عن أنظارنا، فلم نرها إلا عند الوصول، وحتى لو كنا نراها فإنها لا تعرف من اللغات إلا لغتها الروسية التي لا نعرفها.

ثم اتسعت الحقول في هذه المنطقة التي تشبه أن تكون حوضاً لذلك النهر الذي لا يزال يتلوى من تحت الطائرة وسط بسط سندسية خضر لا ترى فيها موقع قدم خالٍ من الخضرة الكثيفة.

وقد بدت المنطقة خصبة جداً من أمطار تسقط فوقها، ومن مياه هذا

النهر الذي يتلوى فيها، ثم اتسع حوض النهر فصار سهلاً لا يدرك البصر مداه من الطائرة؛ لأننا أبعدنا نسبياً عن منطقة الجبال، واتسعت الحقول مع تدني الطائرة، وهي تتدلى في طيرانها.

ومررنا من فوق بلدة صغيرة لم يوضح لنا أحد شيئاً من أمرها، ولكننا رأينا نهراً صغيراً آخر أحمر المياه قد أقيمت حوله البلدة، ثم مررنا بالنهر الكبير الذي تبين أنه كان يساير الطائرة، وبحيرة واسعة، مما أوجد عندي شعوراً بأن المنطقة ندية جداً، وقد أثبت ذلك ما رأيته من أمرها بعد ذلك عندما هبطنا في (كرسنا دار)، وسلكنا منها الطريق البري إلى (ميكوب).

بدت منطقة (كرسنا دار) من الطائرة واقعة غير بعيد من ضفاف شعبة من تلك البحيرة الواسعة، ومع ذلك لم يبدُ لنا شاطئها مجملاً ولا معتنى به.

ثم رأينا بلدة (كرسنا دار) بيوتها غارقة في الأشجار النضرة، وهي ذات سقوف مسنمة حادة التسنيم، ولا أدري سبب ذلك إلا أن يكون ككثرة الثلج، لأن الأسقف الحادة التسنيم تتفرق عنها الثلوج ومياه الأمطار بسهولة أكثر من السقوف المسنمة تسنيماً مسترخياً.

في مطار كرسنا دار:

هبطت الطائرة في مطار (كرسنا دار) في الثانية إلا عشر دقائق أي بعد طيران استغرق (٤٥) دقيقة، في مدرج ضيق طويل، ورأينا المطار حافلاً بالطائرات الصغيرة إلى درجة تسترعي الانتباه مما يدل على أنها تطير منه إلى عدة مدن صغيرة أو مناطق ليس فيها مطارات واسعة، وهي مناطق كثيرة في هذه البلاد، ومنها على سبيل المثال مدينة (ميكوب) عاصمة جمهورية الإديغي التي ليس فيها مطار أصلاً على أهميتها.

ومع ذلك فإن هذا المطار فيه طائرات نفاثة قليلة والانطباع عن مبنى

المطار وبرج المراقبة لا يعطي بأنه مطار صغير، لأن المبنى متوسط.

وعندما وصلنا المطار رأيت منظراً ذكرني بمنظر مماثل كنت رأيته في نيجيريا من قبل، وهو منظر جماعات من الركاب الذين يستعدون لركوب إحدى الطائرات، وقد وقفوا صفاً في الشمس خارج المبنى مما يلي ساحة وقوف الطائرات، ومع كل واحد منهم أمتعته، وهي ما تسميه العامة عندنا (عفشه) الذي سيركبه معه إلى الطائرة، يحملون ذلك بأنفسهم، والجو هنا شامس والشمس ذات حرارة محسوسة.

أما في نيجيريا فإنهم اختصاراً للوقت يصفون ركاب الطائرة القادمة في ساحة وقوف الطائرات قبيل وصول الطائرة من أجل أن يصعدوا إليها عندما تصل، وكثيراً ما يختلط الركاب القادمون بالمغادرين، وقد رأيت ذلك بنفسي.

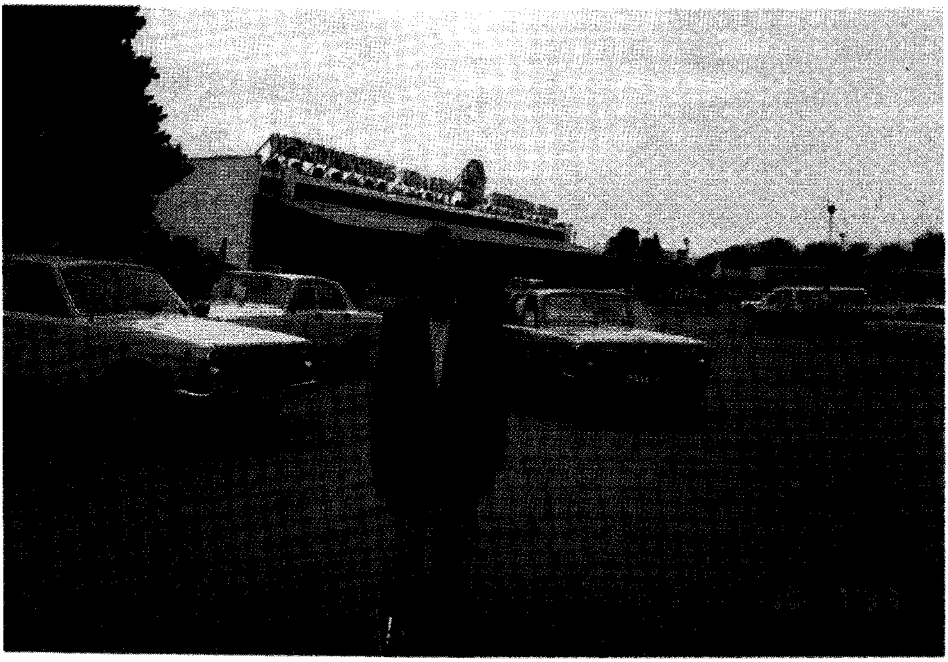
بعد وقوف الطائرة نزل الركاب كالمعتاد، وحمل كل منهم متاعه بيده، ولم يبق إلا أمتعتنا، فوقفنا عند الطائرة طبقاً لما قالته لنا المضيفة التي ذهبت، تتظلل بجناحها عن الشمس في انتظار أن يأتي شخص ينزلها من الطائرة، ولا يمكن أن يحضر شخص إلا إذا عرف أنها لنا، وأننا أجانب يمكن أن ندفع له مقابل ذلك.

ولم يأت للطائرة فذهب اثنان منا إلى المطار وأرسلوا رجلاً مع عربة كالجرار الزراعي، فأنزلها ببطء، وطلب أن نركب معه، فرأينا مركبه على الحديد مباشرة ليس له في المقعد أية وقاية.

ورأيت المهندس المكلف بالكشف على الطائرة قد حضر إليها على دراجة هوائية معتادة.

ركبنا معه، ولم نستطع الجلوس لخشونة الحديد العاري في الجرار

فوقفنا، فأدخل الأمتعة ودخلنا معه دون أن يقول لنا شيئاً، فوجدنا أنفسنا في مكان محجوز، اضطررنا أن ننادي من يفتح لنا الباب، ومع ذلك رأينا في هذا المطار أول سير متحرك للأمتعة.



في مطار كرسنا دار مما يلي المدينة

ثم فتحوا محل تسلم الحقائب، وخرجنا بصعوبة ونحن نجر أمتعتنا، لأن الذي أحضرها أخذ منا الحلوان وهو (البقشيش) وانصرف.

وذهب اثنان منا إلى مكتب في المطار لخطوط الطيران الروسية (أيرو فلوت) لشراء تذاكر لنا إلى محج قلعة عاصمة داغستان لنسافر فيها بعد ميكوب، وبقي اثنان عند الأمتعة، فمضى وقت طويل قبل العثور على من يتكلم الإنكليزية حتى نتفاهم معه، ثم مضى وقت أطول في أخذ ورد حول قطع التذكرة كعادتهم في التردد، وعدم الإسراع في الأمور، ومع ذلك لم

يقطعوا إلا تذكرتين، طلبوا منا أن نقطع التذكرتين الأخيرتين، من مكتب لهم داخل مدينة (كرسنا دار)، وكنا قررنا من قبل أن لا ندخل هذه المدينة، وإنما نستأجر سيارة من مطارها إلى مدينة (ميكوب).

في مدينة كرسنا دار:

استأجرنا حافلة صغيرة لنقلنا من مطار (كرسنا دار) هذا إلى مدينة (ميكوب) عاصمة جمهورية الإديغي شرط أن يذهب بنا أولاً إلى المدينة مدينة (كرسنا دار) لكي نحاول قطع التذكرتين من مكتب الطيران الروسي فيها، ثم نذهب إلى (ميكوب)، مع العلم بأن الطريق إلى ميكوب يمر بالمطار أي يعود ثانية إليه.

كنا استأجرنا الحافلة من سائق يعرف شيئاً من الإنكليزية، ودفعنا ذلك إلى الاستئجار منه دون غيره، ولكن تبين لنا فيما بعد أنه مجرد سمسار لسائق آخر لا يعرف من الإنكليزية حرفاً.

وسارت الحافلة الصغيرة من المطار إلى المدينة، وقد زاد قدر المدينة مدينة (كرسنا دار) في عيوننا لما لاحظناه من كثرة الناس في قاعة الترحيل، ولا ندري سبب كثرتهم فيها، وربما كان ذلك لكونها المكان الوحيد في المنطقة التي يمكن أن يجد فيها منهم من يريد شيئاً يشربه، أو مكاناً يجلس فيه.

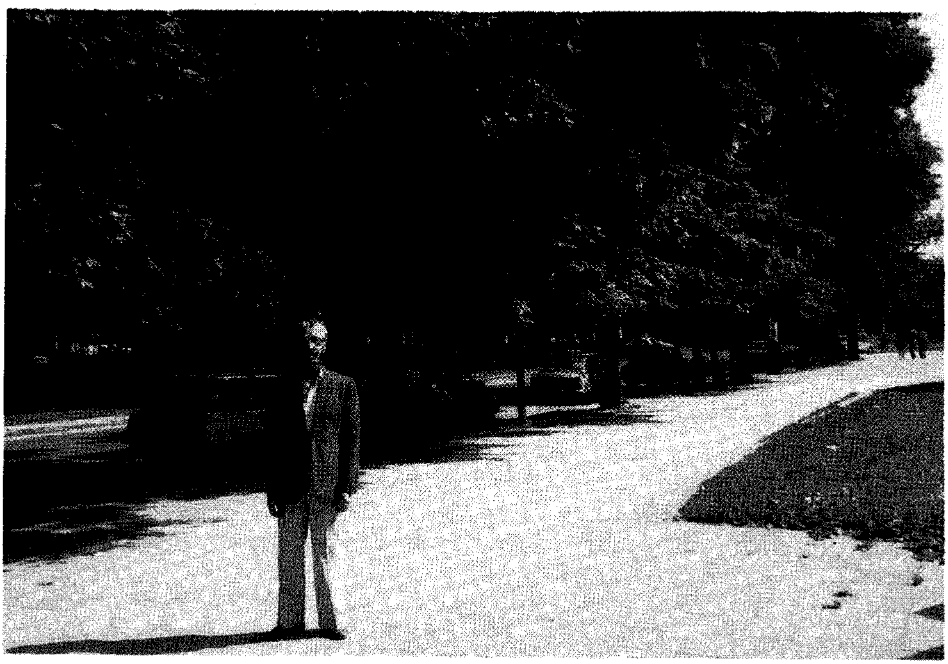
وكان الطريق واحداً أي ليس ذا اتجاهين منفصلين، ومكان الرصيف فيه قد نمت فيه أعشاب خضر؛ لأن المنطقة كلها خضراء ندية، ثم اتسع الطريق، وإن كان لا يزال واحداً للسيارات الذاهبة والآيبة دون فاصل، والمنازل فيه تكاد تختفي تحت الأشجار الضخمة الخضر.

ووصلنا إلى متسع أشبه بالميدان في طرفه تمثال للينين يطل من تحت

أشجار باسقة.

ثم أصبح الطريق ذا اتجاهين يفصل بينهما طريق للقطار.

وكنت لاحظت منذ أن وصلت إلى مدينة (إيركوستك) في سيبريا أن جميع سيارات الأجرة التي ركبنا فيها زجاجها الأمامي فيه (شطب)، وهو الشرخ غير المنفصل، وذلك سيئ جداً بالنسبة لي أنا خاصة؛ لأنه يمنع الصورة التي ألتقطها والسيارة تسير من أن تكون نقية من الشوائب، وفي هذا الصباح كانت حافلة مصلحة السياحة التي نقلتنا من الفندق إلى مطار (سوتشي) أيضاً في زجاجها شطب، وهذه الحافلة التي نركبها الآن فيها مثل ذلك، وإن كان بعيداً عن مركز الصورة بالنسبة إلى المقعد الذي أركب فيه بجانب السائق.



المؤلف في شارع تظلله الأشجار في مدينة كرسنا دار

عدلت حافلتنا عن السير المستقيم في هذا الشارع الرئيسي الذي يدخل قلب المدينة مباشرة مع شارع آخر قد غرسوا عليه الأشجار الأسطوانية المستقيمة السوق ،جمع ساق، ثم وصلنا إلى شارع آخر واسع أهم ما يميزه حافلات الحبال الكهربائية المسماة في مصر بالترولي باص، إضافة إلى وجود سيارات الركوب المعتادة في هذه البلاد بكثرة، وهي المصنوعة في روسيا.

هذا وسائقنا ساكت، بل صامت صمتاً مطبقاً حتى إذا سألناه بكلمة يمكن أن تفهم بالإشارة لم نجد لذلك صدى أورد فعل مناسب أو غير مناسب، مما أشعرنا بأنه تمثال للمواطن الجامد في عهد الشيوعية مع أن الشيوعية ولت، وإن يكن بعض رجالها لا يزالون في السلطة، ولكن تحت عنوان آخر.

ووصلنا إلى الشارع الأخير في المدينة، الذي يقع عليه مكتب الطيران الروسي أيرو فلوت، وهو شارع ذو اتجاهين تفصل بينهما جزيرة من الأشجار الباسقة كأنما هي جزء من حديقة غناء معتنى بها.

وتقع عليه أبنية متفرقة غير متلاصقة، وكلها أو أكثرها تشغلها إدارات أو مؤسسات تابعة للدولة، الأمر الذي كان قد بقي من الحكم الشيوعي ولا يزال.

وتقع حديقة جيدة في جانب من هذا الشارع، ولكنها لا تبدو واضحة وسط المساحات الخضر التي هي كلها ذات أشجار باسقة، وأعشاب وحشائش خضر تحتها، مما عجبت لوجوده هكذا في هذه المدينة، ولم نسمع لها بذكر يتماشى معه.

مع العلم بأنها ومنطقتها كانت من مناطق المسلمين في هذه النواحي القوقازية، ولكن غلبهم عليها الروس منذ زمن بعيد، فهاجر إليها منهم ومن

لف لفهم من السلافيين المسيحيين كالأوكرانيين والروس البيض وغيرهم من الأرمن ونحوهم حتى غلبوا سكانها المسلمين، فصار المسلمون فيها أقلية لا أهمية لها في تقرير أمور المنطقة.

ويكفي المرء أن يعرف أن منطقة الإديغي الذين هم من الشركس المسلمين الذين كانوا أقوياء في دينهم لا تبعد عنها إلا بمسافة قليلة لا تتعدى (٥٠) كيلومترا، ويقول الشركس ويعيدون القول بأن هذه المنطقة كانت منطقة لهم.

غير أن الشركس صاروا الآن في جمهوريتهم التي سميت باسمهم (الإديغي) أقلية عددية، فكيف بهم في هذه المنطقة المجاورة لها؟!!!

عملية التذكرة:

وعملية ولادة التذكرة تعسرت، حتى شعرنا أنها تحتاج إلى عملية قيصرية، وقال أحدنا: إن القيصرية هنا هي الحلوان للموظفين، وقد وجدنا أن جميع من في المكتب من الموظفات، وعددهن ثلاث.

والمراد بذلك تكملة تذاكرنا التي اشترينا اثنتين منها من مكتب المطار.

وكان المؤلم أن الحديث بطيء، والعمل بطيء، ونحن مستعجلون ونريد أن نرى الطريق إلى (ميكوب) في النهار، وبعد مخابرات لهاتف المطار كلمنا فيه الموظفة التي اشترينا التذكرتين فيه منها رضوا بأن يبيعونا التذكرتين، ولكنهم ذكروا أنه لا يوجد حجز لنا في اليوم الذي قررنا فيه السفر، وهو يوم بعد غد الإثنين، ولم يوافقونا على الحجز، وتعللوا بعلل منها أن ذلك يكون غدا في المطار، وأن علينا أن نحضر للمطار لكي نحصل على الحجز فأخبرناهم أننا مسافرون الآن إلى (ميكوب) ولن نعود إلى المطار إلا قبل وقت

المغادرة بساعتين.

وقد استغرق ذلك منا أكثر من ساعتين، من دون أن نفلح في الحصول على الحجز الذي كانوا وعدونا في المطار أنه يمكن، ونحن نعرف من عادتهم أنه يمكن، لأنهم عودونا على أن لا يبيعوا تذاكر الإركاب إلا لمن حجز، بمعنى أنه إذا كانت بقيت تذاكر، فمعنى هذا أن المقاعد موجودة والعكس بالعكس، فالحجز معناه وجود تذاكر على هذه الرحلة، ولا يمكن الحجز إلا لمن اشترى التذكرة.

هذا وقد تمشيت في هذا الشارع الذي أعجبني بكثرة الأشجار والتفافها فيه، وبالحدائق المتصلة به.

أما المباني فإنها أسمنتية بعضها مؤلف من طابقين، وبعضها من ثلاثة طوابق.

والمارة في الشارع هم من الأوروبيين الذين لا يختلفون في مظهرهم الخارجي عن الأوروبيين في أنحاء أوروبا الغربية الذين نعرفهم، إلا إذا دقق المرء النظر في وجوههم، فإنه يعرف أن تقاسيم وجوههم غير تقاسيم وجوه الأوروبيين في بعض الأشياء، وأما في بادئ الأمر، ومن النظرات الأولى فإنهم الأوروبيون الأنقياء.

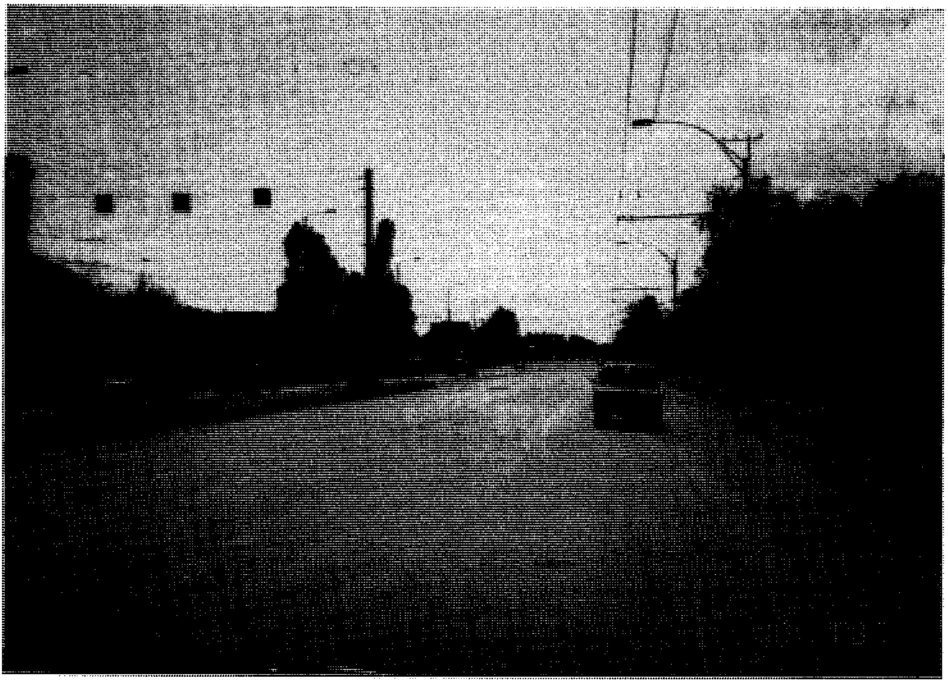
ويلاحظ أن أكثر البيوت والأبنية في هذا الشارع وما حوله من أحياء المدينة هي قديمة نسبيا، أي مضت ثلاثون أو أربعون سنة على بنائها، وليست جديدة.

وهذا معروف السبب، وهو أن الشيوعيين إنما يبنون المساكن الجديدة على هيئة أبنية ضخمة ذات طوابق متعددة (عمارات) تكون فيها الشقق، وتكون في ضواحي المدن وأطرافها.

إلى ميكوب:

في الساعة الخامسة عصرا كنا نتحرك من مكتب الخطوط الروسية قاصدين مدينة (ميكوب)، ولم يتأفف السائق أو يبين على وجهه أية علامة من علامات التململ أو عدم الرضا لكوننا أخرناه حوالي الساعتين وهو واقف أمام هذا المكتب يتناوب حراسته وحراسة السيارة أحدنا مع بقية أصحابه لئلا يذهب بأمتعتنا ونحن لا نعرف من أمره شيئا إلا صفة السمسار الذي أجرنا سيارته، فهو ذو علامات فارقه في مظهره، وفي معرفته بشيء من اللغة الإنكليزية.

فخرجنا من المدينة عائدين مع الطريق الذاهب إلى المطار حيث صار الطريق يسير بجانب جزء من البحيرة الكبيرة التي رأيناها من الطائرة، وفي المنطقة أبنية ضخمة متعددة الطوابق.



عند الخروج من كرسنا دار إلى ميكوب

ثم غادرنا المدينة مع طريق واسع ذي اتجاهين في حالة جيدة.

وعند الخروج من المدينة مررنا بمركز للشرطة فيه شرطيان ولكن لم يطلبا إيقاف السيارة، ولا سألا عنا.

ومن الملاحظ لدينا أنه لو سألنا أحد ورأى جوازاتنا لما وجد فيها أية سمة أو ختم يدل على دخولنا البلاد بصفة رسمية؛ لأنه لم يطلب منا أحد ذلك، بل لم نجد في المبنى الذي دخلناه في المطار في (سوتشي) أي مكتب للجوازات.

واستمر الطريق يماشي البحيرة إلى جهة اليسار، ومررنا بسد صغير يتدفق منه الماء فيؤلف نهرا، وقد جعلوا ظهر ذلك السد جزءا من الطريق.

ورأينا هنا ما رأيناه في طرق (القرم) من كثرة الواقفين على الطرقات الذين يشيرون إلى سيارتنا وهي حافلة صغيرة ليس فيها غيرنا يريدون أن يركبوا.

وعلمت أن بعض هذه الحافلات تحمل الناس من الطريق بأجور زهيدة.

وأما حالة المنطقة من حيث الخصب، وكثرة العشب، فإن ذلك يمكن أن يقال: إنه أكثر من المزروع زراعة في النظر إذ الأعشاب متشابكة، ومع ذلك لم أر حيوانا كثيرا يرعى فيها رغم وفرة المرعى، وإنما رأيت حتى الآن ثلاث بقرات ترعى في منطقة تحتمل أن ترعى فيها آلاف الأبقار.

وقد صح بعض ما توقعته عندما رأيت بعد ذلك قطيعا من الأبقار ترعى فيه.

ريف بلاد الشركس:

قلنا: إن هذه المنطقة هي شركسية في الأصل، أي في التاريخ الذي سبق الاحتلال الروسي القيصري، ولكن مع الاحتلال وعلى مدى السنين هاجر أو

هجر إليها أناس كثير من غير المسلمين فيهم الروس وغيرهم ممن قرب مذهبه من مذهبهم.



الطريق ما بين كرسنا دار وميكوب

وهذا لا ينفي أن تبقى لها الصفة التاريخية، وإن كانت قد تغيرت في الوقت الحاضر، وهذا ما جعلني أكتب هذا العنوان حينما بعدنا نوعا ما عن منطقة مدينة (كرسنا دار) في طريقنا للدخول إلى جمهورية الإديغي الشركسية، ذات الحكم الذاتي داخل نطاق جمهورية روسيا الاتحادية.

وقد عدلنا عن الطريق الواسعة المتجهة جهة الجنوب، فسلكنا طريقا أضيق منها يتجه جهة الجنوب الشرقي.

وتوجد مزارع قليلة على هذا الطريق الفرعي ضيقة ربما كانت من المزارع الشخصية، لأن المزارع الحكومية تكون واسعة، ومثلها مزارع

الجمعيات التعاونية التي يسمونها الكولخوزات، لأن روسيا رغم كونها نبذت المذهب الشيوعي لا تزال الحكومة فيها تمتلك الأراضي، ولم توزعها على عامة الناس، إلا أن الفلاحين الذين في حوزتهم أراض صغيرة قد اطمأنوا على أنهم لن يخرجوا منها، وإن الحكومة قد تملكهم إياها.

أما الأراضي الضخمة فإنها ملك الدولة لأن المبدأ الشيوعي الذي سار عليه منظرو الشيوعية يقتضي أن تبقى الأراضي كلها مملوكة للدولة.

ثم رأينا حقولا واسعة للذرة عرفنا فيما بعد أن المراد منها أن تكون علفا للحيوان، وليس من أجل محصول الذرة منها، لأن الوقت المتبقي من الفصل الحار لا يكفي لإنضاجها، وذلك لكونهم سبق أن زرعوا الذرة قبل ذلك عندما حل فصل الدفء المناسب لزراعتها.

كما مررنا بحقول القمح الحصيد، وقد بقيت بقايا القصب والتبن فيها صفراء فاقعة بعد أن كانت قد حصدت في حصادات آلية لا تستقصي القصب، وإنما تحصد السنابل بالدرجة الأولى، وكل هذه الحقول الواسعة من قمح وذرة هي من المزارع الحكومية العامة، أو من مزارع الجمعيات التعاونية.

ومع هذه الخضرة الشاملة، والمظهر الخصيب رأينا مناقع للمياه مختلفة من مياه أمطار كانت قد سقطت في هذا الفصل الصيفي عندهم، فبلادهم كسائر المنطقة، تسقط عليها الأمطار في الصيف، والثلوج في الشتاء.

والمتبادر للذهن أن هذه الأراضي الخصبة لم تستغل الاستغلال الأمثل الذي يعتمد على الآلات الحديثة في الزراعة، ولو استغلت بهذه الطريقة لأغلت غلات وافرة ربما تغير من مستوى المعيشة في البلاد.

زهور القيظ:

والقيظ في لغتنا العامية وفي الفصحى هو الفصل الذي يسمى الآن بالصيف عند عوام الكتاب، وهو هنا شبيه بفصل الربيع عندنا من حيث البرودة والحرارة، وأما من حيث سقوط الأمطار، ووفرة الأنداء فإنه فوق ذلك بما لا تصح معه المقارنة.

ولذلك رأينا زهورا وحشية، وهي التي لم تزرع، وإنما نمت عفرا من الحشائش والأعشاب البرية فصارت تزين هذا الريف الأخضر بألوانها الزاهية التي أظهرها اللون الأبيض واللون الأصفر.

وأجملها ما كان على هيئة سنابل من الزهور المستطيلة المتناثرة.

بحيرة أخرى:

مررنا فوق جسر على لسان ضيق من بحيرة لا أدري ألها علاقة بالأولى، وإنما اعتقدنا أنها بحيرة أخرى، فليس معنا من يفهمنا أمرها، واسترعى انتباهي حصادة كبيرة تحصد القمح من حقول قمح حكومية واسعة وحول الحصادة عدة سيارات من سيارات الشحن.

ثم مررنا بحقول أكثر سعة مزروعة زراعة حديثة وهي من الحقول الحكومية.

ولاحظت قلة زراعة الخضرات مع أن الوقت صالح لذلك، والخضرات غالية الثمن، فعلى سبيل المثال يبيعون الكيلو من الطماطم بألف روبل، وذلك يعادل دولارا أمريكيا واحدا، وقد يعتبر ثمنا غاليا جدا بالنسبة إلى دخولهم المتدنية، لأن طائفة من الموظفين فيهم لا يزيد الراتب الشهري للواحد منهم على ثلاثين ألف روبل، فيصير ثمن الكيلو من الطماطم في مقابل يوم عمل

واحد للموظف، وذلك مثلما يكون عليه الحال بالنسبة للموظف المتوسط في بلادنا الذي راتبه ستة آلاف ريال فيما لو اشترى الكيلو من الطماطم بمائتي ريال سعودي!



قرية في الطريق بين كرسنا دار وميكوب

ولذلك رأيت فلاحات على الطريق جالسات أمامهن مقادير ضئيلة من الطماطم، لا يتعدى مجموع ما مع الواحدة منهن عن كيلوين اثنين، وقد جلسن على الطريق يبعنه على المارة بثمن أرخص من الثمن الذي يباع به في المدينة؛ لأنه يصعب عليهن حمله إلى المدينة لقلة وسائل النقل الخاصة عند المواطنين، وإنما يعتمدون على وسائل نقل المحاصيل ونحوها على ما تملكه الحكومة.

قرية ريفية:

ومررنا بقرية ريفية صغيرة تكاد تغرق في هذا البساط الأخضر الذي تظلله الأشجار الباسقة، بيوتها من لبن الإسمنت أو الآجر، وسقوفها مسنمة، وأكثرها مطلي باللون الأبيض.

وأكثر ما لاحظته فيها كثرة الواقفين على الطريق يشيرون إلى السيارات المارة بإركابهم، وفلاحات يعرضن شيئا من الخضرات للبيع، وهذا أمر تكرر، ولكن الشيء الذي يكاد يكون قد بدأ منذ أن وصلناها هو منظر حقول عباد الشمس أو دوار الشمس بزهوره الصفر، وقد زرعوه في حقول واسعة، وهذه عادة لأهل البلاد الشمالية أن يزرعوا دوار الشمس أو (عباد الشمس)، كما يسميه بعض الناس، في الصيف لغرض عصره واستخلاص الزيت من حبه للإدام، ومن أجل استعمال بقاياه بعد العصر علفا للداوجن.



من السيارة لمنازل على الطريق بين كرسنا دار وميكوب

ثم مررنا بقرية عند نهر صغير لم نعرف اسمها أيضاً، ولكن أعجبني فيها منظر فرس وفلوها، وهو ولدها، وهي أول خيل أراها في هذا الريف اليوم، وفيها بقر قليل العدد.

وعطف الطريق جهة الجنوب، ورأيت لأول مرة هنا دراجات نارية ثلاثاً وهي قليلة عندهم، وأماكن الاستراحة هنا معدومة أو نادرة، ولم أر منها على قارعة الطريق شيئاً، لا من المقاصف ولا المشارب، ولا حتى المطاعم، وإن كنت مرة رأيت إشارة إلى وجود مطعم في رسم شوكة وملعقة ترى من الطريق.

ومع هذا الخصب الظاهر النادر رأيت امرأة تحمل على ظهرها علفاً من العشب في ثوب، وهي تسير متثاقلة على الطريق.

سد وجسر:

مر الطريق على سد جعلوا ظهره جزءاً من الطريق بمثابة الجسر إلا أنه ليس بواسع.

ثم دخلنا طريقاً رئيسياً واسعاً، وقد بقي على الوصول إلى مدينة (ميكوب) ٣٠كيلومتراً، رأينا هذا الرقم في لافتة صغيرة مع أن الإشارات أو الإرشادات والأرقام في الطريق هي قليلة.

وما زال الخصب ووفرة العشب هو السائد، بل صار يزيد كلما أمعنا في القرب من ميكوب، وحتى الأشجار هي خضرة نضرة لا ترى فيها أي أثر لجفاف، أو حتى لقلةٍ في النضارة، ولكنه ليس مستغلاً كما ينبغي.

حصان الراعي:

لم أكد أقول لرفقائي: إنني أعجب من قلة الحيوان في هذا الجو

الخصب المفعم بالمرعى حتى رأيت قطيعاً من البقر معه راعيه راكباً على حصان، ولكنه لا يفعل أكثر من أن يلاحظ البقر عن أن يشذ منه شيء أو حتى يربض بعد شبعه، لأن الأعشاب نامية كما تنمو المزروعات أو أكثر، وهي من أخصب الأراضي التي رأيتها في العالم على كثرة ما رأيته من أنحاء العالم الخصب، فالأعشاب هنا ملتفة بشكل لا يمكن لك أن ترى معه شيئاً من التربة مهما جال بصرك فيما حولك، وهي سامقة العلو حتى إن بعضها يصل في علوه قرب قامة الرجل إلى جانب التفافه، وحتى أكتاف الطريق قد غمرتها أعشاب الربيع، وإن شئت قلت: أعشاب القيظ حتى صارت أوفر وأنضر من أعشاب الربيع.

مقبرة الصلبان:

هذه البلاد كانت شيوعية كما هو معروف، وقد طلقت الشيوعية في الوقت الحاضر، وكان الشيوعيون بحكم إلحادهم لا يضعون الصلبان فوق قبورهم، لأن ذلك رمز للأديان ودليل عليه عندهم، ولذلك تخلو مقابرهم من الصلبان على القبور إلا ما ندر.

وقد مررنا الآن بمقبرة واسعة ليس على القبور التي فيها صلبان، وإنما جعلوا الصلبان بين القبور، وهي تبدو جديدة مما يدل على أنهم وضعوها في المقبرة حديثاً بالنسبة إلى عمر المقبرة، وكل الصلبان التي رأيناها فيها هي من الخشب.

وأما المظاهر الأخرى للقبور فإنها لا تبدو غريبة عن منظر القبور عندنا، فهي ذات شواهد معتادة من الحجارة البسيطة أي الخالية من الكتابة أو التأنق، وهذا هو الطابع الغالب عليها.

ومررنا بجانب من البلدة التي فيها المقبرة بيوتها من طابقين أو طابق

واحد تجمع بينها السقوف المسنمة الحادة التسنيم، وهي التي جعلت على هيئة سنام البعير أي ليست مسطحة كما يكون في بلادنا وفي البلدان غير المطيرة.

وفي هذه البلدة صف من الأبنية ذات الطوابق المتعددة التي تبنيها الدولة وتؤجرها شققاً على موظفيها والعاملين فيها أو على سائر الناس.

وكثرت مناقع المياه في هذا الريف الذي زاد خصبه، ونما عشبه، ونحن نقترب من مدينة (ميكوب) ولا لافتات ظاهرة، وإنما توجد لافتات صغيرة لا يراها إلا من يعرف موقعها، ومع ذلك كتبت عليها الأسماء بالحروف الهجائية الروسية التي لا يعرفها إلا من تعلمها، وليست كالحروف اللاتينية.

وساءلت نفسي عن عدم كتابتهم اللافتات بحروف لاتينية كما نفعل نحن حين نكتبها بالعربية تحتها الاسم بالحروف اللاتينية، وخيل إلي أن ذلك من بقايا الحكم الشيوعي الذي كان يحرص على عزل الأجانب عن المواطنين في الاتحاد السوفيتي حتى الذين تسمح السلطات الحكومية لهم بدخول البلاد لا تسهل لهم أن يسيروا فيها وحدهم، لذلك لا بد لهم من مرافق يعرف الروسية.

ومن هذا القبيل أنهم كانوا يجعلون في فنادقهم أناساً لا يعرفون لغة غير الروسية، وبخاصة أنهم يجعلون لكل طبقة من طبقات الفندق مديرة من نسائهم اللائي يكن من العجائز، أو من ذوات الأنصاف في الأعمار، ولا يعرفن أية لغة غير الروسية، ويسبب بذلك يمنعون من حيث لا يدري النزيل من أي تفاهم بينه وبين العاملين في الفندق الذي قد يفضي بعضهم قصداً أو عن غفلة بما لا يريدون أن يتفوه به.

زلق الحمار...

في المثل القديم: «زلق الحمار وكان من شهوة المكاري» والمكاري هو

الحمَّار، أي صاحب الحمار الذي يؤجره للناس للركوب، ومعنى أن يزلق الحمار هو أن يتوقف عن السير برهة طويلة، لأن الحمار لا يستطيع أن يخلص نفسه من الورطة بأن ينهض بنفسه، وإنما على صاحبه أن ينهضه، وغالباً ما يستعين بآخرين على ذلك.



فوق الأعشاب الكثيفة بين كرسنا دار وميكوب

وليس لنا حمار ولا معنا حمار، ولكن معنا الحمَّار، وهو سائق سيارتنا الذي لم ينبس ببنت شفة منذ أن ركبنا معه حتى الآن، ولاحظت أنه أيضاً لم يعطس ولم يسعل، فلم يضطر لفتح فمه لشيء.

حتى الدخان، وهو يدخن، لم يفعله إلا بعد أن وقف من دون أن يسألنا أو يستأذننا، أو حتى يخبرنا، وإنما ذهب إلى أشجار قريبة فبال، وأشعل لفافته، وعادة العامّة من الناس أن يعتبروا أن التدخين عند من يحترمونهم أو

يعرفون أنهم من غير المدخنين أمر غير لائق، وقد يعتبر من سوء الأدب، وهذه هي «زَلْقةُ الحمار» التي كان فيها هو لنا - وليس لنا مثل السوء بالحمَّار بتشديد الميم - إذ أسرعت ألتقط هذه الصورة للطريق وما حوله.

وفعل شيئاً كنت أريد أن أسأله عنه لو كان يعرف ما أقول، وهو أنني لم ألاحظ وجود محطات لبيع وقود السيارات في الطريق، فماذا يفعل من احتاجت سيارته إلى وقود؟

إذْ أخرج من السيارة وعاءً (جالوناً) كبيراً مليئاً بالبنزين، وأفرغه في خزان السيارة، ولاحظت أن العمارة سواء بالزراعة أو المساكن هي قليلة في هذا الريف، فذكرت بلاد الهند والصين التي تتقارب فيها القرى حتى تكاد تتقارن في بعض الأماكن، بخلاف هذه البلاد التي تعطي الانطباع بأنها قليلة السكان، وهي كذلك بالنسبة إلى سعة الأرض وصلاحيتها للاستغلال، وإن كان يتبادر إلى ذهني ما تكون عليه في الشتاء حين يستحكم البرد ويسقط الثلج فأقول: إنهم يمكنهم أن يختزنوا علفاً للماشية، وطعاماً للإنسان مما تجود به أرضهم في أوقات الدفء في الصيف.

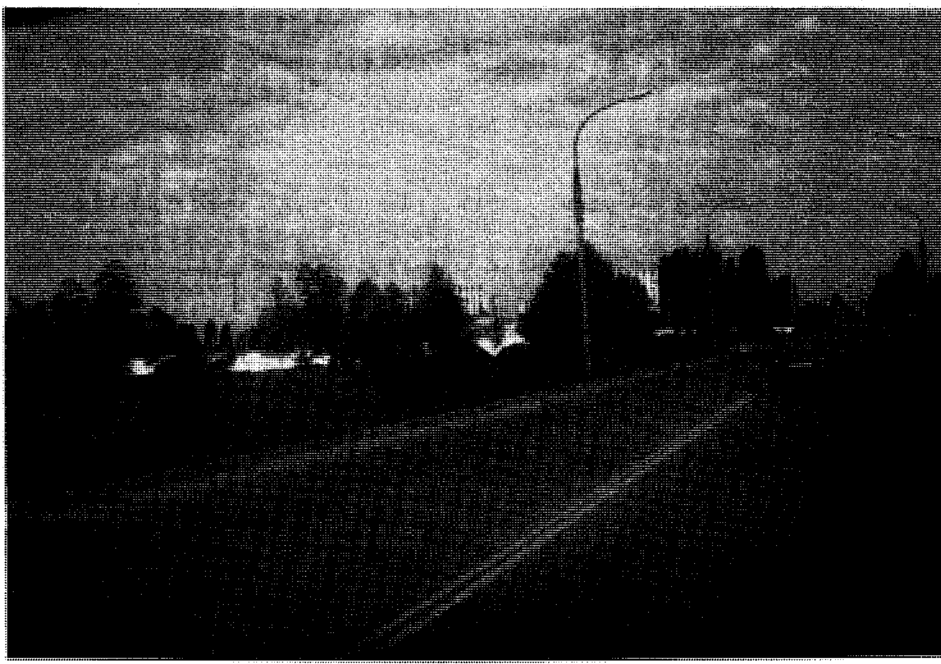
هذه ميكوب:

أوقف جندي سيارتنا عند مدخل المدينة، واطلع على أوراق السائق دون أن يسأل عنا.

وكان وصولنا إليها في السابعة والنصف، وقد بقيت في النهار بقية صالحة.

وتقع في منبسط من الأرض تطل عليه من جهة الجنوب ربى خضر، بل بالغة الخضرة، وأول ما يراه القادم إليها، ولا يمكن ذلك إلا من طريق البر، لأنه لا مطار فيها: الأبنية المتعددة الطوابق (العمارات)، وهي ذات مظهر حسن

مع أنه من الواضح أنها شقق سكنية أي لجماعات من الناس، وتعددت هذه (العمارات) بعد مدخل المدينة.



في أحد شوارع ميكوب

ولم يكن السائق يعرف الفندق الذي ذكرنا اسمه من دون أن نعرفه، وإنما ذكره لنا بعض الإخوة، وهو فندق أديغا، فسأل عنه ثم انطلق مع شارع على حواشيه الأعشاب الخضر النامية، ومن المناظر الغريبة فيه منظر امرأة عجوز تملأ كيساً من الخيش بعشب قطعته من مكان الرصيف، مع أن العشب كثير، ولكن وسائل الانتقال الشخصي عندهم قليلة.

دخلنا المدينة مع شارع طويل جداً مستقيم استقامة عجيبة، قلّ أن يوجد له نظير في هذا الأمر في البلدان السوفيتية، وعلى جانبيه الأشجار الخضر المنسقة وعليه فندق (إديغا) الذي نقصده.

دخلنا من هذا الشارع الجميل إلى الفندق الذي كانوا ذكروا لنا أنه أحسن الفنادق هنا أو من أحسنها، فرأينا داخله خلاف ما عليه الشارع، وغرفه مهملة تفوح منها رائحة كريهة، وهو مملوك للدولة، وتديره الحكومة مثل جميع المحلات العامة في هذه البلاد التي لا تزال تحت تأثير النظام الشيوعي في مثل هذه الأمور.

وقد أشار شخص فيه إلى فندق آخر غير بعيد منه، ولكنه في هذا الشارع المستقيم اسمه فندق (ميكوب)، فوجدنا غرفه مناسبة ورخيصة إلا أنه ليس فيه مصعد، وعلى النزيل أن يحمل أمتعته بنفسه مع درجه الصعب، لأنه ليس فيه فراشون، وإنما العاملون للخدمة فيه من النساء المترهلات اللاتي لا تستطيع الواحدة منهن أن تحمل جسمها إلا بصعوبة، وينحصر عملهن في تهيئة الغرفة قبل دخول النزيل إليها، ثم لا يدخلنها إلا بعد خروجه من الفندق، ولو لبث فيها أسبوعاً، إلا إذا اتفق معهن على تنظيف الغرفة واستبدال الفوط كل يوم.

هذه هي عادتهن التي عرفناها من فنادقهم حينما لا تكون زيارتنا لبلادهم رسمية، أما إذا كانت رسمية؛ بمعنى أنهم اعتبرونا وفداً رسمياً، وكنت كذلك أول مرة وصلت فيها للاتحاد السوفيتي فإن الأمر يختلف، وكثيراً ما يكون سكنى الضيوف في إحدى الاستراحات أو المنتجعات الحكومية التي يسمونها (سنتوريا)، فهي تكون فيها غرف كغرف الفنادق ومطاعم ومشارب، ولكن لا بد أن تكون معزولة عن الناس لها باب عام لا يدخله إلا المقربون، وبينه وبين الغرف مساحات واسعة من الأشجار والفراغ المعمور بالمراقبين.

فيدخل النزيل إليها وهو في الأصل من العاملين في الحزب الشيوعي أو من المقربين للعاملين فيه، وينزل فيها مع أسرته بأجر زهيد، ولكن لا يستطيع سائر الناس أن ينزلوا فيها.

وقد نزلنا فيها في إحداها هذه المرة بعد أن تركنا جمهورية (الإديغي) هذه، وفرغنا بعدها من جمهورية (قرتشاي شركس)، ووصلنا إلى جمهورية (قبرداي بلغار)، وقد ذكرت ذلك عند الكلام على تلك الجمهورية في غير هذا الكتاب.

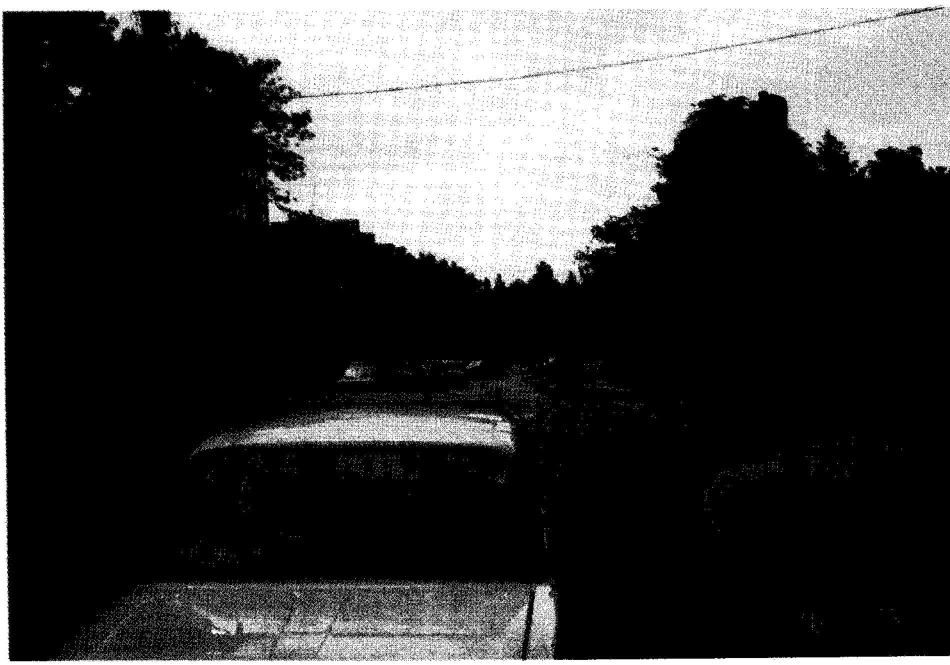
لم نكد نرفع أمتعتنا إلى غرفنا التي هي كلها أجنحة، والجناح هو المسمى (سويت)، ويتألف من غرفة للجلوس فيه مقاعد جيدة، وسجادة محلية الصنع، وتلفاز، وخزانة، ومكتب، يدخل منها إلى غرفة النوم التي فيها سريران كعادتهم في الاتحاد السوفيتي السابق؛ حيث يكون السرير ضيقا تعجب من كونهم لا يشكون من ضيقه، وهم ضخام الأجسام بالنسبة إلينا، وتكون فيه أغطية مع أن الفصل الآن هو فصل الصيف، وليس في غرفهم كلها مراوح أو مكيفات، وتكون في الغرفة عادة خزانة للملابس ضيقة، وداخل الغرفة حمام، ولم أر في طول البلاد السوفيتية وعرضها التي زرتها من جنوبه في بلاد أذربيجان وتركستان، وشماله في مدنية (مورمانسك) داخل الدائرة القطبية الشمالية حماما واحدا عامرا بمعنى أنه ليس فيه شيء قد خرب فأصلحوه على غير وجهه الذي كان عليه.

وأجرة الجناح في هذا الفندق بغرفته للنوم وغرفته للجلوس (٢٥) دولارا أمريكيا، وقد أسرعنا نصلي الظهر والعصر جمعا وما زالت الشمس حية رغم كون الساعة قاربت الثامنة من قبل المغرب.

نظرة سريعة:

لم أطق صبرا على المقام في الغرفة رغم التعب، فنزلت أسير في الشوارع حول الفندق من هذه المدينة التي تعتبر عاصمة من عواصم بلاد الإخوة المسلمين في القوقاز، وهم هنا (الشركس) الذي يسمون (الإديغي)، ويمكن

أن يترجم معنى الإديغي بأنه الشركسي الأصيل، مع أن الكلمة هذه مؤلفة من كلمتين كما سبق.



قلب مدينة ميكوب

ويعتبر هذا القسم الذي يقع فيه الفندق قلب المدينة الحديث، وهو كذلك مستقيم الشوارع، جميل الأبنية، قد شمله التشجير، وفوق ذلك فيه حدائق في بعض الأماكن، وشوارعه تحف بها أرصفة جيدة تنتصب فيها أعمدة النور، فهو حديث أو كالحديث حقاً.

وتطل على هذا الجزء من المدينة من جهة الجنوب تلة خضراء من أجمل التلال التي رأيتها، فهي تغلق النظر لمن ينظر إليها من المدينة متوجهاً بنظره جهة الجنوب.

ولاحظت كثرة اللون الأحمر في الأبنية هنا، وأكثرها ذات طوابق

متعددة متطامنة من ثلاثة طوابق أو أربعة، وكلها أبنية حكومية كانت ملكاً للدولة ولا تزال.

وتتعامد الشوارع في الحي، وقد نسقوا المرور فيه، فجعلوا بعض شوارعه ذا اتجاه واحد، تنظيماً للمرور، والمرور يعتمد على الإشارات الضوئية فلا توجد في وسط المدينة جسور، أو أنفاق أو حتى دوّارات.

أما الناس الذين تكونت صورهم في ذهني لأول مرة، فإن الألوان صارت تتغير منذ أن وصلنا إلى ميناء (سوتشي) الروسي حتى الآن، فهي البياض الذي تغلب عليه الشقرة، والجمال الظاهر في التقاسيم.

والذي يأتي إلى هذه البلاد الشركسية وفي ذهنه ما قد يكون قرأه من قول شائع، وهو أن أجمل الناس إنما يوجدون في بلاد الكرج والشركس، وبلاد الكرج هي المعروفة الآن بجورجيا في جنوب القوقاز، أما بلاد الشركس فهي هذه التي وصلنا أول جمهورية لها، فيكاد من سمع هذا القول يحكم بصحة ذلك من واقع ما يراه في شوارع هذه المدينة، غير أنه إذا تذكر أن أهل البلاد الأصلاء من الشركس لا يمثلون إلاّ نحو ١٥٪ من سكانها، وأن أكثرية سكانها هم من الروس وأشباههم من الأوروبيين السلافيين، فإنه يشك في حكمه.

إلا أن الشيء المؤكد أنه يرى بين سكان هذه المدينة كما رأيت أناساً ذوي طابع متميز من الجمال، ليس من المعروف في الروس وغيرهم، مثل الأنف القائم، أو لنقل إنه الحاد في قيامه، والعين الواسعة، واللون الأبيض دون شقرة، وإن كان ذلك كله على قلة، ومن دون أن تكون الألوان والسحن الأخرى خالية من الجمال.

كما أنه يرى على قلة الوجه المستطيل الذي يبدو عليه النحول أو النحافة، وهو قليل الشيوع في الجنس الروسي، ويرى أكثر ما يرى هنا في

الشبان ومتوسطي الأعمار.

ومن الأشياء التي لاحظتها عندما رأيت الروس في بلادهم الأصيلة، وعلى رأسها العاصمة موسكو، أن طائفة منهم يغيب التناسب في التقاسيم عن وجوههم طبقاً لما اعتدنا عليه في بلادنا العربية، إذ كثيراً ما ترى فيهم من هو ذو وجه غليظ القسمات ما عدا الأنف فإنه صغير، وقد يخيل إليك أن حاجبي بعضهم تبدوان غليظين إلى درجة لا توجد في الجنس الأبيض إلا على ندرة، كما أن طول الوجه وعرضه لا يبدو منسجماً في بعض الأحيان مع حالة البدن في نظرك.

وكل ذلك يعود لكون الجمال نسبياً، والشعور به أيضاً نسبي، ويخضع لحالة الناظر وما اعتاد عليه نظره أو ذوقه من الأشياء التي منها وجوه الناس.

مع أسرة أردنية:

قابلنا هذه الليلة بعض الإخوة الشراكسة من الأردن وسوريا، والغريب أنك تعرفهم من مجرد أن تراهم، فتعرف أنهم من العرب، وليسوا من الشركس أهل هذه البلاد، مع أن أنسابهم محفوظة في الشراكسة، ولكن وجودهم قديم نسبياً في البلدان العربية، فأثر فيهم الغذاء والهواء، وربما المصاهرة مع العرب، مع أن أكثرهم يحرصون على أن يتزوجوا من أبناء جنسهم الشركس حرصاً على بقائهم متميزين بذلك، على أمل العودة إلى بلادهم الشركسية التي خرجوا منها رغماً عنهم، وأكثر الشراكسة الموجودون الآن في البلدان العربية هم من الجيل الثالث، هذا من ناحية العدد، وإلا فإن فيهم من هم من الجيل الثاني من المهاجرين، وإن كان هؤلاء من كبار السن غالباً.

فالمعروف أن الشراكسة هاجروا من بلادهم منذ ثمانين سنة إلى مائة

سنة، حيث حضروا مباشرة، أو بواسطة تركيا إلى البلدان العربية.

عدت إلى الفندق مع الغروب، فإذا بصبي لم أفطن له يقول لي: أنتم عرب؟ قلت: نعم، وأنت؟ قال: أردني، ثم جاء أبوه وأمه وبقية الأسرة، وسألت الأب وكنت جائعاً لأننا لم نتناول الغداء اليوم عما إذا كان يوجد مطعم للمسلمين يمكن أن نتعشى فيه؟ فأجاب: إنه لا يوجد إلا مطعم واحد صغير صاحبه مسلم، ولكنه يبيع لحم الخنزير، ويجب أن تحترسوا من أن يقدم لكم كباباً من لحم الخنزير.

وقالت زوجته: إننا منذ أيام هنا نعيش على (السندويشات)!.

وسألتهم عن العمل فقالوا: يمكن لكم أن تشتروا غداً خبزاً وجبناً، وهذا هو المتيسر للبيع في المحلات العامة التي أغلقت أبوابها الآن، وكان ذلك في الساعة العاشرة ليلاً.

وسألت هذا الأخ الأردني الذي ذكر لي أنه شركسي أصيل عما إذا كان جاء هنا بنية العودة إلى بلاد آبائه وأجداده؟ فقال: إننا جئنا الآن لنرى البلاد فقط، فنحن في العطلة الصيفية، وقد جلنا فيها ولا نزال نواصل جولتنا.

وقال: إنه إذا صلح أمر البلاد من الناحية السياسية، فإن بعض الشركس المهاجرين قد يعودون إلا من كانوا منهم في أوروبا أو أمريكا.

فقلت له: وحتى أهل البلدان العربية منهم، فإنني أظن أنهم لن يسارعوا في العودة إلا من كانت لهم منهم مشكلة، وقليل ما هم، إذ المعروف أن الشركس قد اندمجوا في المجتمع الأردني من حيث التعليم والعمل، وكذلك في المجتمع السوري، وأصبحت لهم أملاك ووظائف، وحتى أولادهم الذين هم من الجيل الثالث لم يعودوا يعرفون اللغة الشركسية التي كان آباؤهم يتقنونها على صعوبتها لمن لا يمارس التحدث بها.

ثم عقدت مع الإخوة أعضاء وفد الرابطة، وهم ثلاثة غيري اجتماعاً في الفندق صنعنا فيه الشاي لأنفسنا، وأخرجنا من التمر والكعك الذي نحمله، فأصبنا منه، يحملنا الجوع على ذلك، وبحثنا موضوع عملنا في هذه البلاد.

وكنا هاتفنا أخاً سورياً شركسي الأصل كنا نحمل عنوانه معنا، فجاء إلينا سريعاً، وهو الأخ (نهاد مراد)، فأنسنا به وبحديثه العربي المبين.

وذكر لنا من أمره أنه شركسي سوري، وأنه قد جاء إلى هذه البلاد واشترى فيها بيتاً بسبعة آلاف دولار، وأنه ينوي السكنى هنا، وقد تبين لنا بعد ذلك أنه مثل معظم إخواننا السوريين، وهم قلة قليلة ربما لا يتعدى عددهم الخمسة، قد جاؤوا إلى هذه البلاد الشركسية مسلحين باللغة الشركسية، وفيهم من يعرف الروسية لأنه كان قد درس في الاتحاد السوفيتي إنما جاؤوا إلى هنا بحثاً عن فرص الأعمال التجارية التي تحتاج إلى مثلهم ممن يتقنون لغات أجنبية كالعربية، ويعرفون التعامل مع الآخرين في الموضوعات التجارية.

لم نكن نهتم بطبيعة الحال بالأمور التجارية، وإنما كان اهتمامنا منصباً على الأمور الإسلامية التي قدمنا من أجلها، وقد أفادنا التعرف على الأخ (نهاد مراد) إذ وجدناه مهتماً بأمور الدين، وحدثنا من ذلك بكثير مما أردنا معرفته.

قال الأخ نهاد: لم يكن في هذه البلاد من قبل أحد ممن درس العلوم الشرعية يكون مرجعاً للأمور الدينية، قال: حتى الذين مثلي قد درسوا الشريعة الإسلامية في كلية الحقوق السورية، وتخرج منها لا يوجدون، وإنما كان يوجد فيها منذ عشرين سنة شخص غير مختص صار مفتياً لها، وقد بحثنا مع المسؤولين هنا أنه يجب أن تدعم الحكومة العمل الإسلامي عن طريق المساعدة حتى يوجد مرجع ديني معترف به من قبل الحكومة.

قال: وأما أن تدعم بالمساعدة أو المعاونة المالية، فذلك ما لا سبيل إليه في

هذه البلاد ، لأن المسؤولين الكبار فيها منهم رئيس الجمهورية ونائب الرئيس هم من أبناء المسلمين، ولكنهم ربوا تربية مادية ، ويعرفون بأن أكثرية السكان هنا وبخاصة في العاصمة هم من غير المسلمين، وأنهم إذا ساعدوا المسلمين مالياً فإن الآخرين يطلبون منهم المثل.

قال: فاستجاب رئيس الجمهورية ، وأمر بأن يجتمع المهتمون بالشؤون الإسلامية هنا برئاسته، وأن ينتخبوا لجنة تكون مرجعاً للفتوى ولأمور الدين الإسلامي في البلاد ، فاجتمعت اللجنة بحضور رئيس الجمهورية ، وتم انتخاب سبعة أشخاص منذ أيام قلائل، وكنت أحدهم ، وكان منهم المفتي السابق.

قال: إلا أننا حتى الآن لم نقم بشيء لحداثة عهد اللجنة ، ولعدم وجود قاعدة للعمل ، وسوف نستمر في ذلك ، وأنا أسهمت بما أعرفه من الشريعة الإسلامية التي درستها بإفتاء بعض المسلمين، إلا أنه من المؤلم أنه لا يوجد مسجد جامع في المدينة ، ولذلك لا نستطيع أن نصلي الجمعة ، قال: وحتى صلاة العيد الماضي ذهبنا إلى مكان ضيق كان يستعمل مسجداً فوجدناه مغلقاً نتيجة لخلافات سابقة ، ولم نصل حتى العيد.

وقد بينا له فضل من ينفع الله المسلمين على يديه في أمور دينهم، ورجونا أن يكون منهم رغم كونه ليس من أهل البلاد الأصلاء بنفسه ، وإن كان منهم بأصله وبلغته الشركسية الجديدة التي نفعتنا في الترجمة مع المسؤولين في البلاد فيما بعد.

وأخبرته أولاً لكي يخبر الجميع أننا في رابطة العالم الإسلامي مستعدون للمعاونة في العمل الإسلامي في هذه البلاد ، سواء أكان ذلك على هيئة معونة مباشرة للجمعية الإسلامية الجديدة إذا أثبتت بالعمل جدارتها ، أو بالمساعدة على إعمار المساجد ، وإنشاء الفصول الدراسية الإسلامية فيها ، أو خارجها ، وكذلك بإرسال الدعاة ، وتقديم منح دراسية لأبناء المسلمين، إلى

جانب إرسال الكتب والمطبوعات والتعاون في مجالات أخرى مثل أن تقوم الرابطة بتسهيل سبل اتصال الجمعية بالإخوة المسلمين في البلدان الإسلامية عن طريق تقديمها إليهم والتعريف بهم، والأخ (نهاد مراد) متقاعد سبق أن شغل عدة وظائف في بلده سوريا آخرها: (معاون وزير الشئون الاجتماعية والعمل في دمشق).

أما عن هجرة أهله من هذه البلاد الشركسية، فذكر أنها كانت في عام ١٨٦٢م، أي منذ مائة وواحد وثلاثين سنة، وذكر أن والده وجده مولودان في سوريا، وأنه يعرف من أسرته التي هاجرت بنفسها جدته؛ لأنها عمرت طويلاً حتى عاشت ١٠٤ سنين.

وقد استمرت جلستنا مع الأخ نهاد حتى الساعة الثانية عشرة، فتركناه على موعد أن يحضر إلينا في السابعة والنصف من صباح غد، وأن يسهل لنا الاجتماع بمن لهم اهتمام بالشؤون الإسلامية، سواء أكانوا من الدولة أم من غيرها.

هذا وكنا فتحنا التلفاز المحلي لنرى ما فيه، فكان أول شيء شاهدناه فيه حفلة للغناء الشركسي، فرأينا المغني في هيئته كهيئة المغنين الغربيين، حتى إن في أذنيه أقراطاً تتدلى منهما، مع أنه يرتدي الملابس الشركسية التقليدية، وتقدم فقرات الحفلة فتاة شركسية، مع رجل منهم أيضاً.

وعلى بعض المشتركين من الحفلة طرابيش في رؤوسهم ربما للإشارة إلى عراقة فنهم.

يوم الأحد: ٢١/ ١/ ١٤١٤هـ

إطلالة على ميكوب:

نحن الآن في الجزء الجيد من المدينة، وهي تقع في مكان مستو، إلا

أنها تطل عليها ربى قريبة من جهة الجنوب، ولذلك عندما قال لنا الأخ (نهاد مراد) إنني سوف آخذكم إلى مكان مرتفع في الجنوب لتستطيعوا منه أن تروا المدينة وما حولها بوضوح، وسوف تستمتعون بذلك المنظر أجبناه إلى ذلك شاكرين.

ولم يكن في الفندق مطعم ولا أي مكان يمكن أن يحصل المرء منه على طعام، فأكلنا من التمر والكعك اليابس ما دفعنا به عنا الجوع كما فعلنا البارحة، مع أن جيوبنا عامرة بالنقود ولله الحمد.

ركبنا في سيارة الأخ نهاد، وهي من طراز مرسيدس لم نر لها مثيلة في هذه المدينة، وقال الأخ نهاد: لقد اشتريتها من لبنان وشحنتها بالسفينة، فلم تصل إليّ إلا بعد مدة طويلة، وبعد متاعب في الشحن والتخليص، قال: وهي الوحيدة في هذه المدينة من طراز مرسيدس.

أقول: وهي متميزة جداً بالفخامة ووجاهة المنظر بالنظر إلى الطراز الشائع عندهم في السيارات وهو (لادا) الروسي الضيق الحقير الذي يشبه (الفيات) الإيطالية القديمة، وإن كان هذا الطراز الروسي من (لادا) أقوى من أصله الإيطالي وأكثر تحملاً، وأصبر على العمل في الطرق الخشنة، وقد زاد فيه الروس شيئاً هو أنهم صمموه، أو لنقل أعدوه لكي يقاوم البرودة، لأن معظم بلادهم من البلاد الشديدة البرد في الشتاء.

وتكلم بعد ذلك عن هذه السيارات السائدة هنا، ورخص أسعار المستعمل منها، وقال: لقد اشترى فلان أظنه قال ابني سيارة من طراز جيد إلا أنها مستعملة بألفي دولار أمريكي، وهي الآن لا تكف عن الحركة من دون أن يبين عليها أثر العمل.

خرجنا على هذه المرسيدس الفاخرة بسرعة من الحي الجيد في المدينة، فمررنا بقرب الفندق بقصر رئاسة الجمهورية، ولنا موعد فيه هذا اليوم في

لقاء مع نائب رئيس الجمهورية سيأتي الكلام عليه، وبقرب القصر وزارة المواصلات.

وعلى ذكر المواصلات سألته عن كيفية الاتصال الهاتفي، فأجاب بما أجاب به غيره أن ذلك غير ممكن، وإنما يمكن الاتصال الهاتفي داخل أقطار الاتحاد السوفيتي السابق.

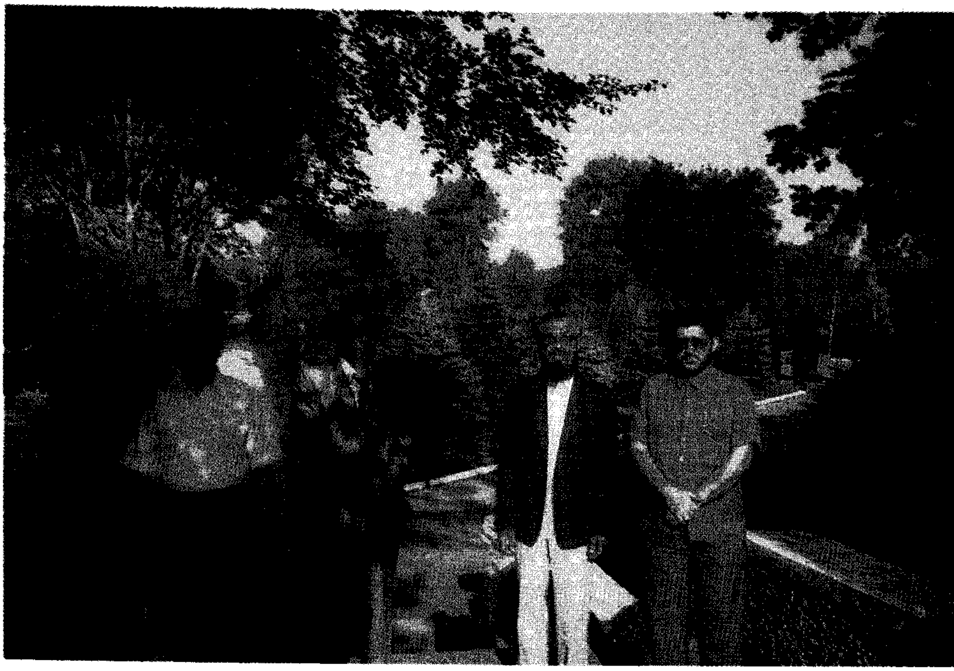
ووقفنا في ضواحي المدينة الخضراء النضرة، فمررنا بفرع للنهر الذي يمر بقرب المدينة، فإذا به قليل المياه، ذكروا أن الحكومة تأخذ ماءه لكي تولد تياراً كهربائياً منه، مع أن هذه البلاد كغيرها من أقطار الاتحاد السوفيتي مربوطة كهربائياً بعضها ببعض، مما جعل الطاقة الكهربائية متوفرة حتى بالنسبة إلى المناطق التي يصعب توليد الكهرباء فيها محلياً.

الغابة الجميلة:

صعدنا بسرعة إلى غابة تجلل التلة التي ترى من المدينة، وتسمى (مزداش)، ومعناها الغابة الجميلة باللغة الشركسية، فمز: غابة، وداش فيها معناها: جميلة.

سلكنا طريقاً إسفلتياً من الغابة العذراء التي لم تمسها يد التغيير، فبدت كالغابات المغلقة التي تكون فيها الأشجار الكبيرة والسامقة، تحتها أشجار أقصر منها، وعلى الأرض حشائش وأعشاب وأوراق متساقطة تجتمع عندما يحل فصل البرد، فيجرد الأشجار منها، ثم يسقط فوقها الثلج فيصيب الأوراق التعفن، وتتحول إلى سماد يخصبها، ولذلك قيل في مثلها: إن الغابة تسمد نفسها.

كان الطريق يخترق الغابة في جو مظلم من أشجارها تتعانق فوقه فروعها، وتغلق النظر في بعض الأماكن التي يلتوي فيها الطريق.



في الغابة المحمية المطلة على ميكوب مع الدكتور عدنان باشا في أيمن الصورة، و(نهاد محرم) على يمين المؤلف، فالأستاذ رحمة الله بن عناية الله

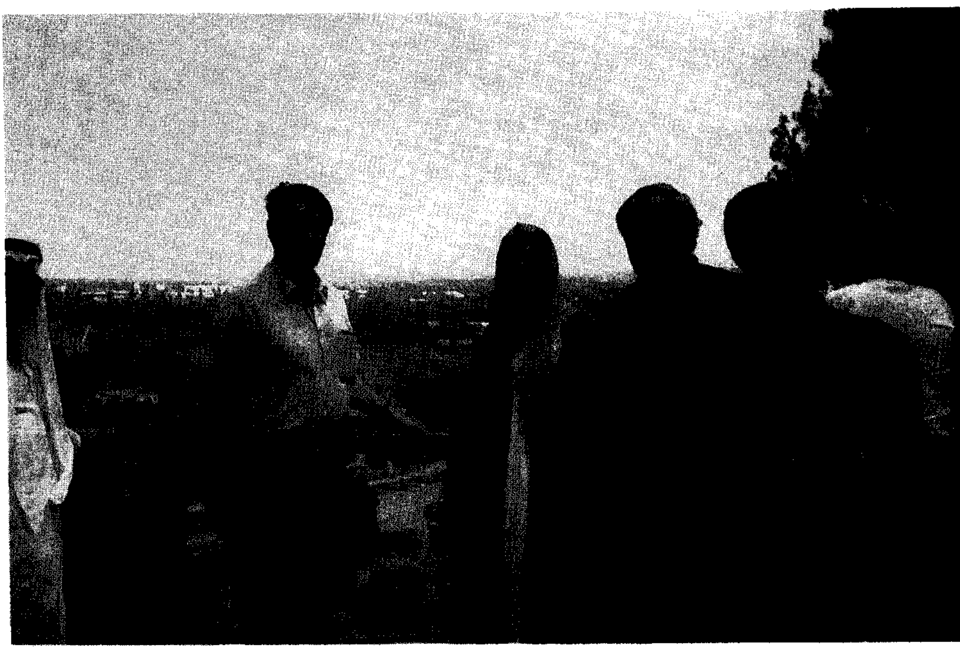
وقد اعتنوا بهذا الطريق، لأنه يذهب إلى منتجع هناك إضافة إلى موقع من التلة يشرف من علٍ على مدينة (ميكوب) وضواحيها.

وقيل لنا إن في الغابة هذه التي هي متصلة بغابات أخرى بعيدة بعض الحيوان البري المحمي من الصيد.

طرف الأشجار:

وقفنا في هذا المكان المرتفع المطل مباشرة على ضواحي مدينة ميكوب عاصمة جمهورية إديغي الاتحادية، وذكرت عندئذٍ معنى اسم (ميكوب)

الذي ذكروا لنا أنه يعني باللغة الشركسية (طرف الأشجار)، لأن (ماي) نوع من الشجر، وكوب: الملتفة، فهي إذاً: طرف الأشجار، ومع أن ذلك صحيح إذا أريد بالأشجار أشجار الغابة الملتفة، أما إذا أريد بذلك طرف الأشجار أي أشجار، فإنه غير صحيح، لأنها مثل غيرها من الأماكن في منطقتها غارقة في الأشجار.



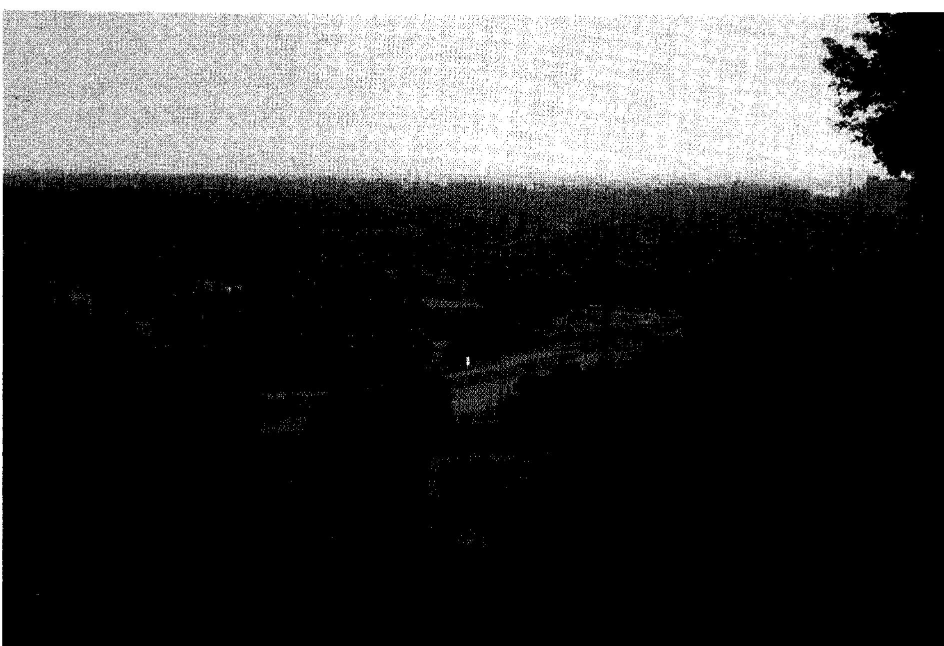
صورة تذكارية على تلة عالية تشرف على ميكوب، من اليسار: حسن أزميرلي، ثم روسلان بانيش رئيس لجنة العلاقات الخارجية والقومية، فالمؤلف، فالأخ يحيى علاء الدين صوفار، ثم موسى إبراهيم جنب

استجلينا من هذا المكان المرتفع مدينة ميكوب وما حولها، وجعلت أبحث في نظري عن منارة مشرفة أو قبة مميزة لمسجد من المساجد في هذه البلاد المسلمة، أو التي كانت مسلمة بأهلها، ثم غدت غير ذلك بمستعمريها من الروس القيصريين المسيحيين، ثم من الشيوعيين الملحدين.

وسمعت الأخ (نهاد مراد) يقول وكأنني في حلم من الأحلام: إن هذه المدينة من بلاد أهل الإسلام، لا يوجد فيها مسجد على الإطلاق إلا ما كان من أمر مكان ضيق صغير حكم عليه الشقاق بالإغلاق، مع أنه لا يزيد على كونه غرفة صغيرة، ليس لها شعار، وليس فيها منار.

قال: ولكن يوجد مسجد الآن معد لغير الصلاة المعتادة، وإنما للصلاة على الجنازة، وسوف نراه فيما بعد.

وأما بالنسبة إلى المدينة فإن الحكومة قد خصصت فيها أرضا يبنى عليها المسجد الجامع إذا وجد من يبنونه كما سوف ترونه.



الريف القريب من ميكوب كما صورته من التلة التي على ظهرها الغابة العذراء

كان المنظر جميلا، بل جليلا، لولا ما كدره علينا من هذه الأخبار

المحزنة عن عدم وجود مسجد ربما يصبح مركزاً إسلامياً كما كانت المساجد في صدر الإسلام، وكما هي عليه الآن في بعض أقطار الأمصار.

أعجبني منظر الأرض وخصوبتها، فأخبرني المرافقون من أهل البلاد أن الحكومة توزع الآن على الفلاحين الذين لا يملكون أراضي ٣ هكتارات لكل أسرة، وإذا كانت الأسرة كبيرة زادوها بقدر الأسرة، وهذا شيء جديد، ولا يزال محصوراً في نطاق ضيق.

السنتوري أو المنتجع:

هبطنا من هذا المكان المرتفع الجميل على التلة الخضراء، أو لنقل الغابة المرتفعة التي تطل على المدينة وضواحيها مع طريق إسفلتي جيد يشق أرضاً خضراء قاصدين ما أسموه (السنتوري)، وهذا اسم روسي معناه: المنتجع، أو المستراح الصحي، وهو يشبه الحديقة الواسعة المنسقة، له مدخل واحد خارجي لم يكن يمر معه إلا رجال موثوق بهم، وسرنا داخل هذا (السنتوري) مع طريق تحف به الأشجار الباسقة، وفيه مبانٍ للسكنى الرئيسي فيها ٤طوابق ذكروا أن فيه غرفاً وأماكن للسكن ومطعماً ومقصفاً، وأنه كان في العهد الشيوعي المتزمت خاصاً بكبار رجال الدولة وأسرهم وضيوفهم، وأما الآن فإنه لا يزال يأتي إليه رجال الدولة، ولكنهم يدفعون مقابل ذلك ثمناً رمزياً، كما أنه يمكن للضيوف وكبار الشخصيات الأجنبية أن تقيم فيه فترة بذلك الأجر الرمزي الذي قالوا إنه في حدود أربعة دولارات في اليوم.

والهدف من زيارة (السنتوري) هذا ليس مجرد مشاهدته والتفرج برؤيته، وإنما لمعرفة ما إذا كان صالحاً لإقامة دورة لتدريب أئمة المساجد في هذه الجمهورية وفي جارتها، وما إذا كان صالحاً لإسكان المتدربين والمحاضرين

الذين سيكون عددهم ما بين ١٠٠ إلى ١٢٠ شخصاً.

وهي مثل العاصمة تطل عليها من جهة الشرق تلال خضر جميلة، بل هي أقرب إلى تلك التلال من العاصمة، وعلى ذكر المتدربين والدارسين في الدورة، وأنهم سيكونون من أهل هذه الجمهورية (إديغي)، ومن الشركس الذين يقطنون في الجمهورية الأخرى المجاورة، أو التي كانت مجاورة لها، وهي جمهورية (قرشاي شركس) بمعنى جمهورية القرشاي والشركس سألتهم عن إمكانية اتحاد هاتين الجمهوريتين على اعتبار أنهما تشغلان أراضي كانت أراضي إسلامية في الماضي، فذكروا أن الروس قد فصلوا بين الجمهوريتين بأراضٍ تابعة لمناطق أو جمهوريات أخرى، فلم يجعلوهما تشتركان في الحدود.

مع العلم بأنه توجد جمهورية أخرى صغيرة فيها أغلبية من الشركس في منطقة القوقاز هي جمهورية (قبرداي بلغار)، والقبرداي مثلهم مثل الإديغي من الأقوام الشركسية التي لا تزال تتكلم اللغة الشركسية، وهي أيضاً مفصولة عنها بأراضٍ لغيرها من الأقوام التي تسكن هذه المنطقة في الوقت الحاضر، وأكثرهم من الروس أو المتروسين، وهم الأوربيون أو السلافيون الذين اتخذوا الروسية لغة، واندمجوا مع الروس.

نهر كواشا، أو نبع الأمير:

مررنا بضاحية تبعد ١٥ كيلومتراً من قلب المدينة فيها منازل قليلة، ويجري فيها نهر صغير اسمه (كواشا)، ومعنى ذلك في اللغة الشركسية: رأس الأمير أو نبع الأمير كما ترجموه لنا، وهو أكبر من نهر بردى في دمشق، ومياهه كدرة ربما لسرعة جريانها، لأنه يأتي من قمم جبال القوقاز.

مع أن الأنهار والبحيرات مثل الغابات هي كثيرة هنا كثرة لا يتصورها

إلا من رآها.

ثم سرنا مع ضواحٍ من ضواحي المدينة البديعة، والعجيب أن خضرة الأعشاب البرية بمعنى غير المغروسة كانت تغلب في بعض الأحيان على خضرة الأراضي المزروعة التي لا تكون في العادة إلا من الأراضي الواسعة، لأن الزراعة المهمة هي بأيدي الحكومة، وهي تتخير لها الأراضي الزراعية الواسعة، وتبقى المناطق الضيقة خالية إلا من هذه الأعشاب والشجيرات الخضر الطبيعية.

وبلغ من كثافة الأعشاب الطبيعية أنها تغلق الطريق أمام البيوت في الضواحي إلا ما كان من موضع القدم تجده كالخط الأقل خضرة؛ لأن العشب الذي فيه يكون قد وطأته الأقدام، ولكنها لم تقضِ عليه فتزيله من المكان، وإنما حد الوطء عليه من كثرته وارتفاعه.

مقبرة المسلمين:

كان ذهابنا لرؤية المقبرة والمسجد الذي أقيم فيها من أجل أن يصلي فيه على الموتى، وهذا أمر عجيب، إذ كيف يعتنون بالصلاة على الأموات دون أن يعتنوا بصلوات الأحياء المحتاجين لأداء الصلاة!.

وجدنا المقبرة مسورة بسور كامل حصين لا يدخل إليها إلا من باب يغلق عند عدم الحاجة إلى فتحه.

وهي خاصة بالمسلمين أنشئت حديثاً، ولذلك رأينا تآريخ وفيات المدفونين فيها حديثة.

ومن البدع المستخدمة فيها أن يضعوا صورة الميت على شاهد القبر الذي يكونون قد نقشوا عليه اسمه ولقبه وتاريخ ولادته وتاريخ وفاته، ومنها مثلاً

هذا المكتوب على قبر أحد الرجال:

(قبر عبد الله إسكندر، ولد عام ١٩٢١، ومات في عام ١٩٩١)، فيكون قد عاش سبعين سنة، وقد وضعوا صورته على القبر منقوشة على شاهد رخامي فخم.

وهناك أيضاً شيء آخر وضعوه فوق قبره الذي لم يكن مرفوعاً أكثر من المعتاد، فهو مرفوع بمقدار نحو الشبر أو أقل من نصف المتر، ولكنهم غرسوا زهوراً على ظهر القبر، فنمت من دون أن تكون لها أحواض بسبب كثرة الأمطار والأنداء.



مقبرة المسلمين الجديدة في مدينة ميكوب

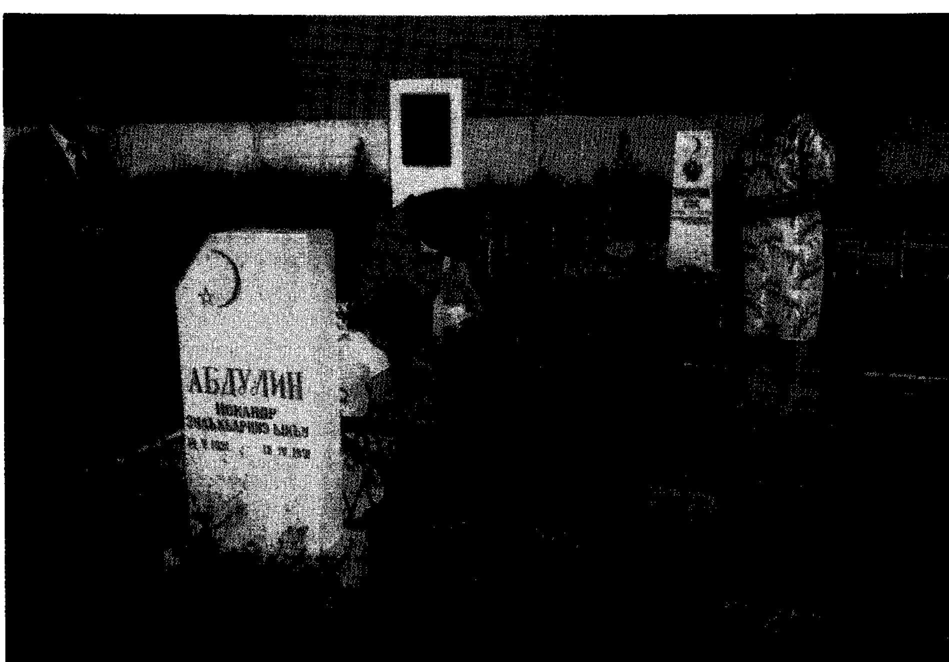
وقبر امرأة رأيناه معتنى به، وذلك لكونها (خوجانا) أي معلمة دين، وللمعلمة في زمن الحكم الشيوعي مقام عظيم، لأن الشيوعيين يمنعون التعليم

الإسلامي، ويعدونه مخالفة قانونية توجب عقاب فاعلها، لذلك يكون من نصب نفسه للتعليم قد عرضها للعقاب الشديد.

واسم المرأة كما كتبوه على قبرها (فيرا إسماعيلوفانا) خوجانا، ماتت عام ١٩٩١ وكانت ولادتها في عام ١٩٠٩.

فتكون ولادتها قبل استيلاء الشيوعيين على الحكم، أي زمن الحكم القيصري الروسي، وقد رسموا صورتها أيضاً على قبرها، وغرسوا على قبرها نباتات حمر الأوراق؛ بحيث تبدو على البعد كأنها الزهور وما هي بالزهور.

وزادوا للعناية بقبرها ببدعة أخرى حيث جعلوه في مربع من الأرض أحاطوه بسلسلة من الحديد، ولا أدري لم جعلوا هذه السلسلة مع أنه لا يخشى على القبر من عمل غير لائق، وربما كان ذلك إظهار زيادة الاحترام لها لكونها كانت معلمة دين.



مسلمات يتعهدن قبراً في مقبرة المسلمين في ميكوب

والشيء غير المناسب في الصور التي ذكرتها وغيرها على القبور أنهم يجعلون صورة الميت على قبره التي تمثله في منتصف العمر مع أنه مات شيخاً أو عجوزاً، فهذه الصورة لا تعكس صورته الحقيقية عند وفاته، وبطبيعة الحال لا تعكس صورته التي هو عليها الآن في قبره.

وقد أخبرت الذين معي بأن رسم صور الموتى ووضعها على قبورهم بدعة منكرة، وأنه إذا كان القصد منها إظهار تعظيمهم، فيمكن أن يؤلف كتاب في سيرهم وأخبارهم وصبرهم على الأذى في سبيل التمسك بدينهم، وتكون فيه صورهم مع النص على أنها لهم عندما كانوا في مرحلة العمر الفلانية، لأن ذلك أصدق من تركها لا تمت إلى المرحلة التي مات فيها الميت بصلة.

أراضي العائدين:

بجانب هذه المقبرة أرض واسعة؛ بل مترامية الأطراف ذكروا أن الحكومة خصصتها للشركس العائدين من مهاجرهم، ولكن تبين من ذكر العائدين أن عددهم قليل بالنسبة إلى العدد الهائل من المهاجرين الشركس، وأكثرهم عدداً موجود الآن في تركيا، وهناك العديد منهم في الأردن وسوريا.

إذ ذكروا أن عدد العائدين لا يتجاوز ٢٦ أسرة أغلبهم من تركيا، وفيهم أسرة واحدة من البلدان العربية.

وذلك لكون الموجودين منهم في البلدان العربية ليست لديهم مشكلات لا يمكن حلها إلا في هجرتهم إلى هذه البلاد التي هي رغم خصوبة أرضها ووجود الموارد الطبيعية فيها تعتبر من ناحية الدخول الحكومية والفردية بلاداً فقيرة.

فالدخول قليلة جداً حتى إن الرواتب ما بين ٢٥ ألف روبل وثمانين ألف

روبل، ويساوي الدولار الأمريكي ١٠٥٠ روبلاً فإذا حسبناه بألف روبل تكون الرواتب تتراوح ما بين ٢٥ دولاراً و ٨٠ دولاراً، وهذا المبلغ على ضآلته كان كافياً للعيش معيشة الكفاف إبان الحكم الشيوعي الذي كان مسيطرا على أسعار المواد الضرورية، ولا يوجد غيرها للبيع، أما الآن فإن الأسعار تقفز بسرعة، والرواتب لا تزداد إلا مبالغ ضئيلة، وهذا مثال على الأسعار في الوقت الحاضر:

- كيلو اللحم البقري بـ ١٢٠٠ روبل أي دولار وربع، وهذا قليل بالنسبة إلينا لأنه يساوي خمسة ريالات، ولكنه كثير بالنسبة إليهم.
- وكيلو الدجاج المذبوح ـ ٩٠٠ روبل.
- والفاكهة بألف روبل للكيلو، وكذلك الطماطم.
- والخبز رخيص، فهو يباع بـ ٦٠ روبل للرغيف.
- وأما البيوت الجديدة فهي رخيصة، ولكنها فوق متناول أيديهم، فالمنزل المنفرد المتوسط بستة آلاف دولار، ولكن من الذي يملكها من العامة؟



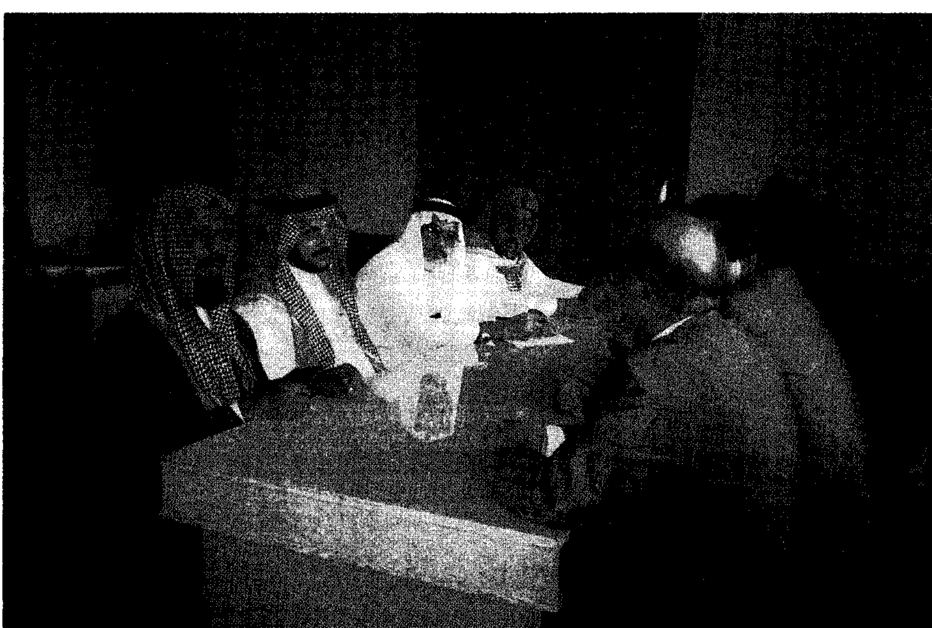
المسجد في مقبرة المسلمين في ميكوب

وهذه المقبرة هي خاصة للمسلمين كما قلت، لذلك رسموا بالحديد على أعلى سورها الهلال الذي هو شعار للمسلمين في مقابلة الصليب شعار المسيحيين، غير أنهم لم يضعوا رسم النجمة في داخل الهلال كما يفعل غيرهم من المسلمين، وذكروا أن السبب في ذلك أن النجمة هي شعار للروس، فلا يريدون أن يدخلوها على الهلال الذي هو للمسلمين خاصة.

ومثل ذلك على القبور وعلى مسجد المقبرة، وهو صغير مغلق عليه قبة صغيرة رأيناه من الخارج وصورته لأننا لم نجد من يفتحه لنا، وفي جانب منه، ولكن مستقل، عنه بناء مخصص لغسل الأموات.

وعندما ما كنت أسير في المقبرة استرعى انتباهي تكاثف الأعشاب فيها والتفافها، فحذرني أخواني من مناقع للمياه فيها تلوث الأحذية، وقد تلوث بالفعل حذاء أحدنا.

مع نائب رئيس الجمهورية:



جلسة المباحثات في مكتب نائب رئيس جمهورية الإديغي

ذكروا أن رئيس الجمهورية ليس حاضراً في البلاد أظنهم قالوا إنه في موسكو، وهو مثل نائب الرئيس من أبناء المسلمين؛ لأن هذه الجمهورية جمهورية (الإديغي) من بلاد المسلمين المخصصة لهم، بمعنى أن الذين يحكمونها فيتولون كبار المناصب فيها هم من الإديغيين أي الشركس، ولو كانوا أقلية عددية في البلاد.

ذهبنا إليه في مكتبه بالقصر الجمهوري غير البعيد من فندقنا (فندق ميكوب)، ووجدنا أحد رجاله ينتظرنا عندما وصلنا القصر لأن موعد المقابلة كان قد حدد منذ فجر اليوم، فقصد بنا المرافقون مصعداً يعرفونه؛ لأن مكتب نائب الرئيس في الطابق الثاني، ولكن الرجل الذي كان ينتظرنا قال: إن المصعد مغلق، ولا شك أن الذي معه مفتاحه ليس حاضراً، فصعدنا مع درج مفروش وسطه بالسجاد حتى دخلنا على نائب الرئيس واسمه (رسلان، تي، حاجي بيكوف)، وقد ضغط أحد الحاضرين على نقطة حاجي وقال بلغتهم: إن نائب الرئيس من ذرية أحد الحجاج، وهذا شرف عظيم، وضحك نائب الرئيس وقال: حاجي، كمن لا يبالي بهذا الوصف.

وجدنا عنده مفتي (الإديغي) الذي كان مفتياً فيها أولها، مدة ٢٢ سنة، ولا أدري من يفتي ولا بم يفتي، وهو لم يعمل على إيجاد حتى مسجد واحد في العاصمة، أو هو عمل، ولكنه لم يستطع، وهو ملوم في الحالتين كلتيهما لأنه إن لم يعمل لذلك فهو ملوم، وإذا كان سعى لذلك فلم يستطع فهو ملوم على عجزه، لأن الشيوعيين كان من عادتهم أن يأذنوا للمسلمين بإبقاء مسجد واحد في المدينة الواحدة، وهذه المدينة من مواطن المسلمين، وعاصمة لجمهورية مخصصة لقوم من المسلمين.

وقد يقول: إن العاصمة أغلب سكانها غير المسلمين وإن المسلمين لا يؤلفون إلا حوالي ١٥٪ من بين سكانها، ولكن هذا ليس بعذر، فليس

المطلوب من سكان العاصمة من غير المسلمين أن يصلوا في المسجد، وإنما هو خاص بالمسلمين لأن غير المسلمين لهم الآن كنيسة، وليس للمسلمين مسجد.

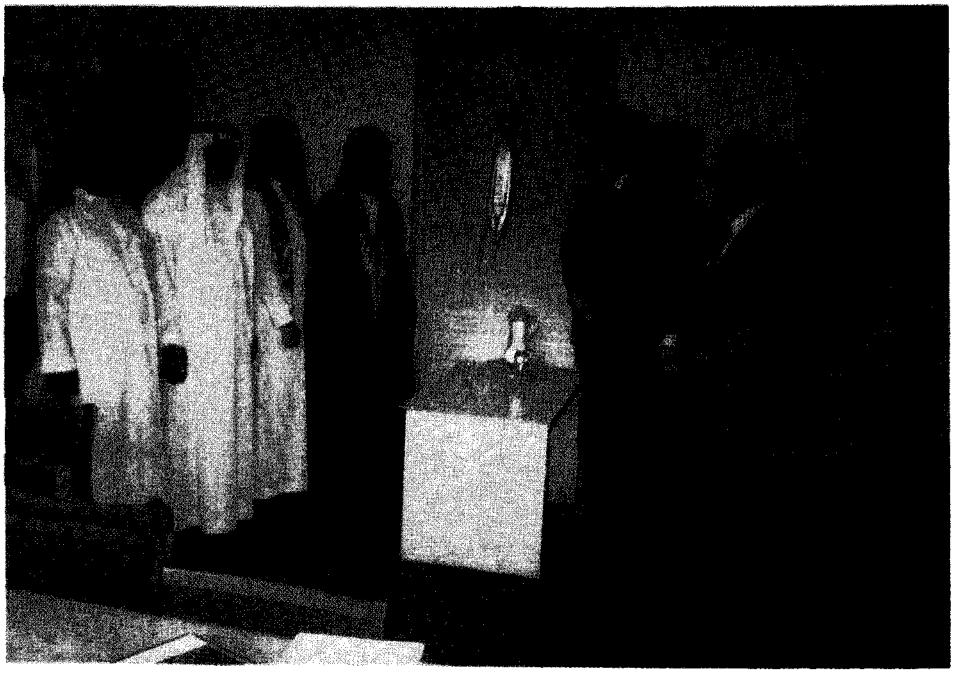
واسم المفتي السابق (موسى إبراهيم جنب) وقد خرج من الإفتاء كما قيل لنا، وصار واحداً من سبعة وكلت الحكومة إليهم القيام بأمر المسلمين كما تقدم.

ووجدنا في القصر الجمهوري أخاً سورياً شركسياً صار نافعاً لنا فيما بعد، وهو الأخ (يحي علاء الدين اندار سوقار)، وهو مولود في الجولان في سوريا، ويعمل في الأعمال التجارية الحرة هنا لأنه يعرف الروسية؛ إذ سبقت له الدراسة في الاتحاد السوفيتي، إضافة إلى معرفته اللغة الشركسية.

كان بدء المقابلة في العاشرة والنصف ضحى مثلما كان مقرراً، فوجدنا نائب الرئيس في مكتب له نظيف مؤثث بأثاث خشبي لا بأس به، وهو أشبه بالقاعة الصغيرة المستطيلة.

رحب نائب الرئيس بنا ترحيباً مقتضباً تبين أنه لم يقصد اقتضابه، بل كان يود أن يكون أطول، ولكن لم يرد أن يتكلم طويلاً حتى بدأت الكلام، فتكلمت عن الدين الإسلامي الحنيف الذي أخذ به الشركس أجداده وأجداد الإخوة الشراكس عن طيب خاطر، ومن دون غزو أو فتح وإنما هو عن رضا واقتناع ذاتي، وأنهم عندما أخذوا بالدين الإسلامي أخذوه، وصاروا مشهورين بالتمسك به والحرص عليه، رغم عداوة الأعداء الشرسة التي قابلوهم بها، حتى إن كثيراً منهم آثروا الاحتفاظ بإسلامهم، خارج أوطانهم عندما رأوا أنهم مهددون في دينهم إذا بقوا فيها، فتفرقوا في البلاد، وكان نصيب البلدان العربية ومنها الأردن وسوريا منهم نصيباً جيداً، فعرفهم العرب من سكان هذين القطرين وغيرهما بالجد والاستقامة، والأنفة والحمية، وكانوا متدينين تدين القوي المتمسك بدينه، وعرفهم العرب في مهجرهم بالصبر والمصابرة على العمل الشاق في سبيل العيش الكريم، حتى

برز منهم شخصيات صارت لهم صدارة في تلك البلاد، ومنهم من تولى فيها منصب رئيس الوزراء كالأستاذ سعيد المفتي الذي رأس الوزارة الأردنية، وفيهم طائفة كبيرة من الوزراء أو رؤساء البلديات وأعضاء في المجلس الوطني فضلاً عن العلماء والخطباء وأئمة المساجد.



تذكارية في مكتب نائب رئيس جمهورية الإديغي الأستاذ رسلان حاجيكوف مع أعضاء وفد الرابطة والمرافقين من البلاد

وقلت: إن الدين الإسلامي ليس كما يفسر أهل الديانة المسيحية ديانتهم بأنها علاقة بين الإنسان وربه فقط، فالدين الإسلامي هو علاقة الإنسان بربه وهو دين عبادة، ولكنه ثقافة وماضٍ مجيد للمسلمين، وهو نظام للحياة.

لذلك كانت العلاقة بين الإخوة المسلمين المتمسكين بإسلامهم علاقة قوية لا ترقى إلى قوتها العلاقات الأخرى.

ولهذا السبب جئنا من رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة إلى هذه البلاد لزيارة الإخوة المسلمين فيها ممن صاروا في موقع المسؤولية ومن العاملين في شؤون التعليم الإسلامي نريد أن نؤكد العلاقات الثقافية الإسلامية التي كانت تربط هذه البلاد بالبلاد المقدسة عن طريق العلماء والطلاب، وعن طريق الحجاج الذين كانوا يتوافدون إليها في كل عام.

ومسعانا هذا خالٍ من أي قصد آخر، فليس غرضنا غرضاً سياسياً، ولا جئنا لذلك بل إنه ليس أيضاً غرضاً اقتصادياً، وإن كنا لا نوفر وساطتنا بين إخواننا المسلمين في هذه البلاد وبين إخوتهم من الاقتصاديين، ورجال المال في بلادنا إذا طلبتم ذلك.

ونحن لا نتدخل في الشئون الداخلية للبلدان الأخرى، ولا ندخل في سياسات الدول الداخلية، لأننا من رابطة العالم الإسلامي التي هي منظمة شعبية عالمية، ومع ذلك سياستها هي سياسة دولة المقر، وهي المملكة العربية السعودية من حيث كونها لا تتدخل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى.

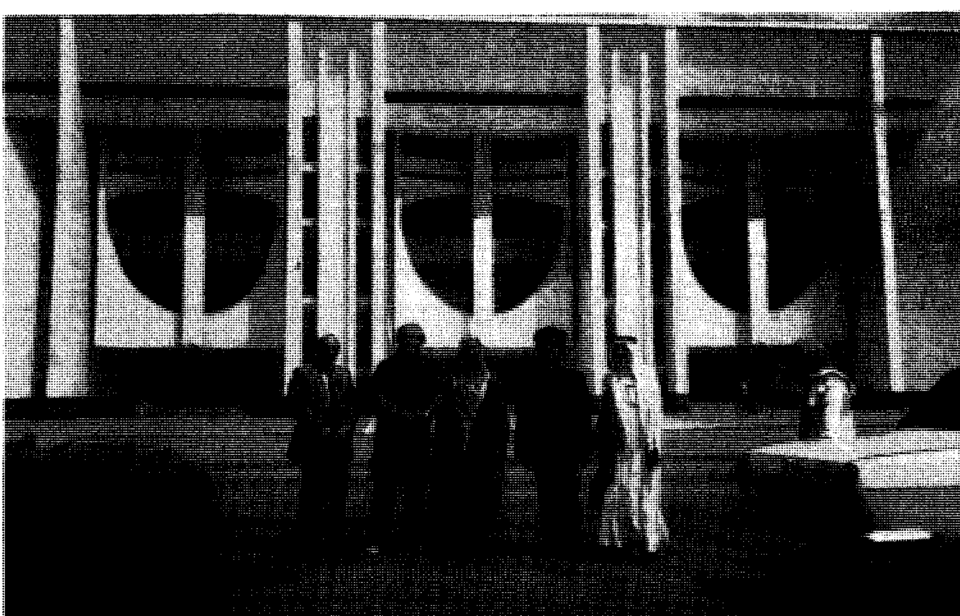
ومع أننا منظمة شعبية عالمية، وأننا لسنا إدارة حكومية سعودية، فإن حكومة المملكة العربية السعودية وعلى رأسها خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود - حفظه الله - تساعد رابطة العالم الإسلامي فتعطيها المقر، وتمنحها ميزانية تستطيع بوساطتها أن تساعد الإخوة المسلمين العاملين في الجمعيات والمؤسسات الإسلامية في البلاد، ثم ذكرت المجالات التي يمكن للرابطة أن تسهم بها، ومنها بناء المساجد، وإرسال الكتب الإسلامية، وتقديم المنح الدراسية لدراسة العلوم الشرعية.

وقد رد نائب رئيس الجمهورية على كلمتي بالشكر على الزيارة، ثم تكلم عن الوضع الإسلامي في البلاد، فكان من ذلك أن قال: قبل سنتين بدأنا العمل للدين، وقمنا بطبع ترجمة لمعاني القرآن الكريم باللغة الشركسية، وسوف أهديكم نسخة منها، وهو عمل نعتز بإنجازه، ذلك بأننا

طبعنا هذه الترجمة في مطبعة الحكومة.

وقال: بلادنا محتاجة للمساعدة في أمور الدين؛ لأننا حكومة لا نستطيع أن نقدم مساعدات مباشرة للعمل الإسلامي في البلاد، لئلا يكون ذلك حجة لأرباب الديانات الأخرى، فيطلبون أن نساعدهم أيضاً، إلا أننا نشجع على العمل الإسلامي، وعلى تقديم المساعدات الممكنة في هذا المجال، ثم ذكر نقطة مهمة لم نكن نظن أنه يقولها، ولا يستطيع مثله أن يقولها في وقت الحكم الشيوعي وهي قوله:

نحن محاطون بالروس من جميع الأنحاء، ولذلك نواجه مشكلة صعبة قد تميزنا عن غيرنا من المسلمين، ولذلك تجب مساعدتنا.



تذكارية أمام مبنى رئاسة الجمهورية في ميكوب، على يمين المؤلف يحيى علاء الدين صوقار، فنهاد محرم، وعلى يساره موسى جنب، فحسن أزميرلي

وأشار إلى أن الشركس قد أصبحوا أقلية عددية في البلاد، مع أنهم أهل البلاد الأصلاء، فقلت له وأنا أعلم أنه ليس معنا إلا الإخوة الشراكسة فليس معنا من الروس أحد، والحديث يدور باللغة الشركسية معه يتناوب ترجمته إلى العربية الإخوة الشراكسة العرب الموجودون معنا: إنكم ذكرتم أنكم قد أصبحتم أقلية في بلادكم، وهذا أمر صار معروفاً للجميع، وفيه خطر عظيم على مستقبل أولادكم المسلمين، بل فيه خطر عظيم على جميع الشراكسة في البلاد، ولا بد من العمل على تلافي ذلك في المستقبل، وذلك باتباع سياسة مرسومة تنفذها جماعات أهلية، وتشجع عليها الحكومة بصفة غير رسمية، وهي تشجيع النسل بين المسلمين، والإكثار من الولادات، وذلك بطريقتين:

إحداهما: تأسيس صندوق أهلي شركسي يخصص دخله للتشجيع على النسل، كأن يعطى كل من يولد له ولدان مبلغاً من المال، ومن يولد له ولد ثالث مبلغاً أكثر، وهكذا.

وأما المولود الأول فلا يعطى له شيء، ثم يستمر إعطاء المنحة بطريقة منتظمة لمن يولد له مثل أولئك الأولاد طبقاً لسياسة مرسومة بمعنى أن لا يقتصر صرف المنحة على وقت الولادة فقط.

ثم يشجع من يقدم على إكثار النسل بتبني مستلزمات التعليم التي لا تقوم بها الحكومة لأولاده.

الطريقة الثانية: تشجيع الزواج ما بين المسلمين، فيعطى من يقدم على الزواج مساعدة مالية تساعده على العزم عليه وتجاوز نفقاته.

ويجب أن يتبع هذا أمر مهم جداً، وهو الأخذ بما جاء في الإسلام دون غيره من الأديان والمذاهب الموجودة في هذه المنطقة، وهو الزواج بأكثر من واحدة، ويمكن كما قلت أن تقوم بذلك جماعات وجمعيات أهلية لا دخل

للحكومة فيها، ولا تنسب تصرفاتها إليها.

فهذا أمر أباحه الدين، وهو رجوع إلى ما كان عليه المسلمون الأولون، وهو ضروري للإكثار من النسل ومكاثرة الأمم التي ورد فيها الحديث: (تزوجوا الولود الودود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة) فذكر الرسول ﷺ المكاثرة هنا، وهي مطلوبة للمسلمين وخصوصاً في مثل حالتكم وحالة إخوان لكم من المسلمين الذين كاثرهم الكفار فكثروهم وغلبوهم عددياً في ديارهم، بعد أن كانوا غلبوهم سياسياً وعسكرياً.

وإنما التعدد ثابت في القرآن الكريم، وفي سنة الرسول ﷺ، واستعمله المسلمون ولا تزال جماعات منهم تستعمله حتى الآن.

وقلت: إنكم قد تستغربون طرح هذا الموضوع، وقد يستغربه غيركم هنا من المسلمين الذين تربوا تربية أجنبية، ولكن يمكن بالشرح والإقناع، وعن طريق أئمة المساجد ورجال الدعوة الإسلامية والكتب والمحاضرات إظهار مزاياه للناس في محاربة العنوسة والتأيم، وعدم تعرض المسلمات للزواج بغير المسلمين.

ثم قلت: وهذا بطبيعة الحال لا ينبغي أن ينسينا الأمر الأهم، وهو إعادة المسلمين إلى دينهم، وربطهم بتراثهم الذي يعصمهم إذا تمسكوا به من الزواج المختلط، ومن ثم يوقف ذوبانهم، واضمحلالهم في المجتمعات غير المسلمة، لأننا رأينا مع الأسف كيف أن بعض أبناء المسلمين ذابوا في غيرهم عن طريق الزواج المختلط، وعن طريق ترك لغتهم حتى نسيها بعضهم في بلادهم نسياناً تاماً، وهذا كله تثبيت للتفتيت، وسير في طريق الضياع والذوبان.

وقلت له في الختام: إن العمل في هذا السبيل يتطلب إنشاء صندوق أهلي يدعى أهل البلاد للتبرع له، ولو بمقادير ضئيلة، ثم يكتب المسؤولون عنه إلى إخوانهم في البلدان الإسلامية، ونحن في رابطة العالم الإسلامي نؤكد لكم

أننا سنسهم في التبرع له، وسنتصل بالجهات الأخرى القادرة على التبرع في بلادنا للتبرع أيضاً.

وأكدت على أن هذه الفكرة وإنشاء الصندوق لا يجبر الناس على تحقيق هدفه، وإنما يرغبهم فيه، ويسهل على من يقتنع بفكرته أن يعمل بها، كما أنه ليس موجهاً ضد أحد من غير المسلمين، إذ بإمكانهم أن يعملوا على زيادة النسل.

لقد بان الاستغراب، بل الدهشة على وجهه، وهو يسمع ربما لأول مرة حديثاً عن الحث على تعدد الزوجات الذي طالما استعمله الشيوعيون حجة لهدم الإسلام، لأنهم يعرضونه مشوهاً معزولاً عن الحكمة منه، مع كونهم يمارسون هم في الواقع تعدد النساء اللاتي يقاربهن الرجال، وإن كانوا لا يسمونهن زوجات، وليس لهن حقوق الزوجات، وإنما يسمونهن خليلات، أو صديقات، أو غير ذلك من التسميات، التي لا تحفظ للمرأة حقوقها، ولا تصون كرامتها، وإنما تبرزها أداة لقضاء الأرب، الذي كثيراً ما تضطر الواحدة منهن للاستجابة له بسبب ظروف العمل والترقية، أو حتى بمجرد الحظوة عند الموظف الشيوعي صاحب النفوذ.

ولكنني أكاد أتيقن أنني قد شرحت الموضوع له ولإخواننا الحاضرين معه لعلاج هذه المشكلة، بل المعضلة، وهو كونهم أصبحوا أقلية في بلادهم، بحيث إذا جرى التصويت الشعبي على أي أمر من الأمور فإن حكم بلادهم سيخرج من أيديهم متى ما أصبحت البلاد ديمقراطية تعطي صوتاً واحداً للشخص الواحد.

ولم يعلق نائب رئيس الجمهورية على ذلك بالتحبيذ أو التفنيد، وإنما قال: أنا ابن حاج، فقلت له: وأرجو أن تكون أنت حاجاً، ويستطيع الإخوة هنا من الآن أن يخبروك بما يجب على المسلم الملتزم أن يفعله، وعندئذٍ يسرنا أن

نستقبلك في رابطة العالم الإسلامي ضيفاً على الرابطة في موسم الحج فتحج وتشاهد إخوانك المسلمين المجتمعين في المشاعر المقدسة في مكة المكرمة، وفي مسجد رسول الله ﷺ في المدينة المنورة، وتعرف عن ذلك شيئاً من الحكمة في الحج والمنافع للمسلمين التي ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾.

ثم انصرف الحديث إلى نواحٍ أخرى، فقال نائب الرئيس: إن جميع المساجد كانت في بلادنا قد هدمت، ولا يوجد الآن مسجد واحد، واعترض المفتي ليقول: إلا مسجداً، أو قال: إلا مسجدين، فاستمر نائب الرئيس في كلامه فقال:

لقد زارنا وفد من مصر، ومعه خرائط لمساجد صغيرة لا يتكلف المسجد الواحد إلا خمسة آلاف دولار، وذكروا أنهم على استعداد لبناء عدد منها في بلادنا، فرحبنا بذلك، وشكرنا لهم عملهم، غير أنهم ذهبوا ولم نسمع عن الموضوع شيئاً حتى الآن بعد أن أعطونا نموذجاً من خرائط المساجد هذه ومواصفات بنائها التي يظهر منها أنها ستكون صغيرة.

ونحن بحاجة إلى بناء مسجد جامع في العاصمة، وقد خصصت الحكومة أرضاً لهذا الغرض سوف ترونها، ونرجو أن تساعدونا على البدء ببنائه.

فقلت له: إننا على استعداد للمساعدة على ابتداء العمل في الجامع، وإذا بدأ العمل به فإن إكماله سيكون متيسراً بإذن الله، فهكذا عرفنا من تجاربنا في الماضي أن أي مسجد بدأ العمل به يسهل العمل في إكماله؛ لأن الإخوة المسلمين القادرين على التبرع إذا عرفوا أن المسجد قد بدئ به بالفعل، فإنهم يقبلون على التبرع لإكماله، ونحن في رابطة العالم الإسلامي نعدكم

من الآن أننا سنسهم في ذلك إضافة إلى أننا سوف نسهم إسهاماً عاجلاً الآن في نفقات البدء بعمارته.

وقلت له والحديث للجميع، وفيهم بعض أعضاء الجمعية الإسلامية الجديدة: إنه يمكن لإخواننا من العاملين في الجمعية أن يتقدموا لما يريدون المساعدة عليه باسم الجمعية الإسلامية الجديدة هنا، وسوف ندرس طلباتهم ونخبرهم بما يتم حولها.

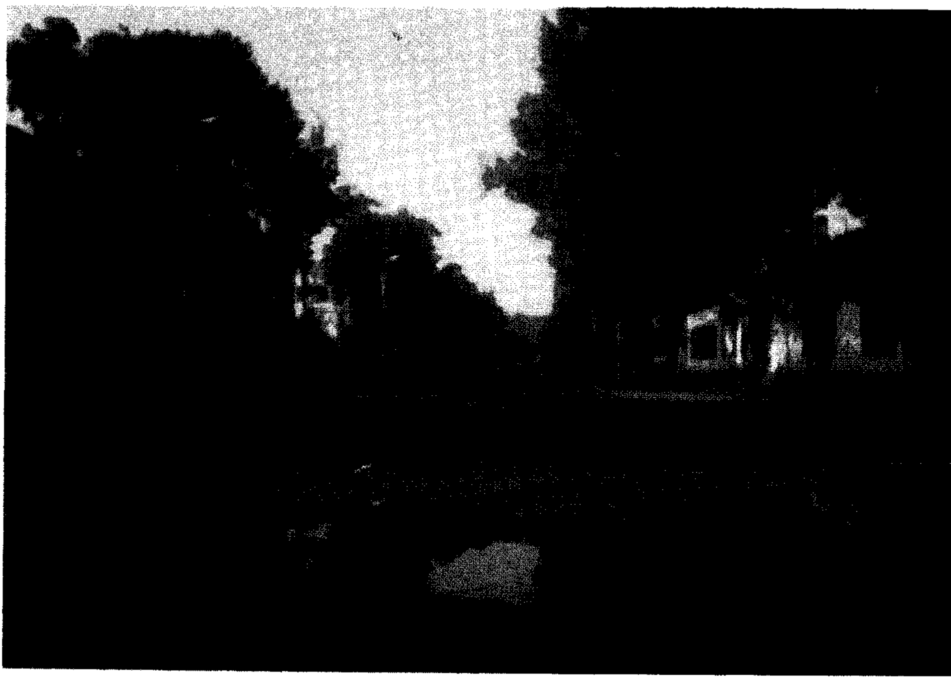
كان الحديث يدور في مكتب نائب الرئيس، وأنا أرى مصلى من الحصير معلقاً في غرفته ذكر أنه كان يستعمل عندهم للصلاة في السابق، ومعه علقوا العلم الإديغي أي العلم الوطني لهذه الجمهورية الشركسية، ويحمل اثنتي عشر نجمة قد رسمت عليه، ذكروا أن ذلك يرمز إلى القبائل الشركسية الاثنتي عشرة، وعليه سهام متعاكسة ترمز للسلام، لأن السهام وهي شبيهة بالسهام العربية ترمز للحرب والقوة، ولكن وضعها متعاكسة وليست مصوبة يرمز للسلام.

وقد علقوا علمهم وهو أزرق اللون بجانب العلم الروسي الذي هو أحمر اللون كما هو معروف ظاهر، ومعروف أيضاً من كونهم جمهورية ذات حكم ذاتي داخل جمهورية روسيا الاتحادية.

إلى أرض الجامع:

ودعنا نائب الرئيس وداعاً حاراً قال: إنه سيتبعه لقاء آخر، ونزلنا من مصعد المبنى الذي فتح أثناء الزيارة، فذهبنا في رتل من السيارات مع جماعات منهم أهم شخص اسمه (رسلان بانيتش) مدير قسم العلاقات الخارجية والقومية، ومسؤول في الحكومة عن الأمور الثقافية والدينية، فوقفنا في منطقة مهمة من المدينة بين المسرح الوطني والمتحف العام في شارع اسمه (شارع

اسمه (شارع المسرح)، وقال (رسلان بانيتش): إن هذه المنطقة من أهم المناطق في المدينة، ولذلك اخترنا أرض الجامع هنا ليكون الجامع قريباً من الأبنية المهمة كالمتحف وغيره.



شارع في مدينة ميكوب

(صورة التقطتها من السيارة)

دار الفتوى:

مما يزهدني في أرض أندلس ... أسماء معتضد فيها ومعتمد

أسماء مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي - انتفاخاً - صولة الأسد

ودار الفتوى على رأسها مرافقنا الآن السيد (موسى إبراهيم جنب) الذي

يقول إنه مفتي هذه البلاد منذ ٢٢ سنة، وفي عهد إفتائه الطويل لم يبن في العاصمة مسجد واحد، بل لم يستطع أحد من المسلمين أن يؤدي صلاة عيد الفطر الماضي.

ومع ذلك أشار إلى محل صغير مغلق قال: إنه دار الفتوى، وإنه مقر المفتي، وقال الأخ نهاد مراد: إنها مقر الجمعية الإسلامية، وليس مقر الفتوى، وإنه لم يعد منذ أن تألفت الجمعية الإسلامية للبلاد مفت واحد حتى نقول إن هذا المكان هو مقره، وقال موسى: المفتي موجود وهذا مقره!!!

وقد انصرف ذهني إلى آثار المفتي المذكور وما قام به للمسلمين خلال ٢٢ سنة، فلم أذكر أنه ذكر هو ولا غيره شيئاً من ذلك ما عدا ما ذكره من كونه بنى مسجداً في قرية قريبة من (كرسنا دار) بعيدة عن هذه المدينة أظنه قال: إنها قريته.

ومما تجدر الإشارة إليه أن خصوم (المفتي) موسى ذكروا أن السبب في بقائه في وظيفة المفتي هو علاقته الوثيقة برئيس الجمهورية، إلا أنهم أجمعوا على أن وظيفته اسمية لا يتقاضى عليها من رئيس الجمهورية ولا من الدولة شيئاً، بل هي أشبه ما تكون بالوظيفة الشرفية، وإن كان يمكن للمفتي أن يحصل على بعض التبرعات من المسلمين الذين يعتقدون استحقاقه لذلك، وهو ينفي هذا.

مع أن دار الإفتاء مغلقة، ولم يستطع المفتي أن يفتحها لنا ربما كان ذلك لعدم وجود زيارتها في البرنامج، لأنه هو نفسه لم يعرف بوجودنا هنا إلا فجر هذا اليوم، وربما كان المفتاح مع شخص آخر لم يحضر.

وبجانبها أرض غير واسعة إلا أن موقعها مهم بادر المفتي السابق الأخ موسى إلى قوله: سوف نبني المعهد الإسلامي على هذه الأرض، وقال أحدهم:

هذه أرض صارت للجمعية، وهي تفعل فيها ما تراه.

ثم وقفنا على أرض المسجد الجامع، وهي واسعة فيها أشجار باسقة متفرقة، وفي ركن منها بيتان، ذكروا أن الحكومة سوف تعوض أربابهما وتهدمهما لتوسعة الأرض.



يحيى علاء الدين صوقار، ورسلان بانيتش في الشارع الذي عليه أرض الجامع في ميكوب

وتقع موقعاً متميزاً بل فاخراً من قلب المدينة الجيد على شارع مهم عندهم اسمه (شارع بوبيدا) بمعنى شارع النصر في هذه المنطقة المهمة المجاورة للمتحف والمسرح وعدة منشآت مهمة، والمراد من ذلك بيان أهمية هذه المنطقة لإقامة المسجد الجامع عليها.

ويجري النهر غير بعيد من أرض الجامع في جهة الجنوب، وعلى العموم

فإن بناء الجامع في هذا المكان هو مناسب جداً، بل هو مكسب إذا تم، وهنا سألتهم عن المبلغ اللازم للبدء بالبناء فوراً، لأنهم ذكروا أنهم كانوا أنجزوا المخططات، وعما إذا كانوا قد جمعوا شيئاً من المال لهذا الغرض، فذكر المفتي شيئاً لم يعرفه غيره من أعضاء الجمعية الإسلامية، ومنهم (نهاد مراد) فقال: إن لدينا أربعة وعشرين ألف دولار موجودة الآن لدى الرئاسة من تبرعات تجمعت للمسجد.

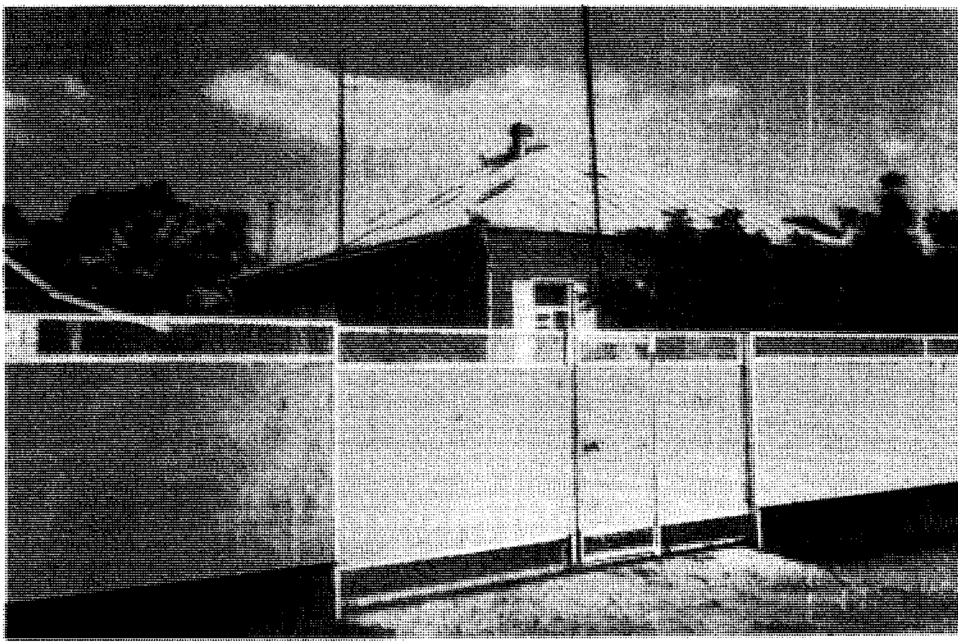
وقد شكرته على ذلك، وقلت له: إننا نستطيع أن نضم إليها تبرعاً قليلاً من رابطة العالم الإسلامي، والسبب في كونه قليلاً الآن أن المسجد لم يبدأ البناء به بعد، والعادة التي نتبعها في رابطة العالم الإسلامي أننا لا نسارع إلى مساعدة المشروعات التي لم يبدأ بها، لأنه كثيراً ما تحدث عوائق عن البدء بالمشروع، فلا يبدأ به، وإنما نسارع إلى المشاريع التي بدأ أهلها بها، وهي كثيرة على طول العالم وعرضه الذي تتعامل معه الرابطة.

لذلك أنصحكم، بل أرجو منكم أن تبدؤوا العمل فوراً في الجامع، وأن تنفقوا جميع ما لديكم من النقود المخصصة لبنائه، ثم تحاولوا أن تجمعوا التبرعات من داخل البلاد إن استطعتم حتى إذا عجزتم ووقف العمل لقصور النفقة كتبتم لنا في رابطة العالم الإسلامي، وسوف تجدوننا بإذن الله مسارعين إلى إرسال ما يستأنف به العمل، وإن لم يكف للمشروع كله وهكذا.

وقد ذكروا أن مساحة الأرض هي ١٥٠متراً في ١٥٠متراً.

وقد التقطنا صوراً تذكارية في موقع الأرض التي لا تزال خالية، وقلت لهم: إنني أذكر الآن مثيلاً لهذه الأرض في أماكن متفرقة من العالم التقطنا فيها صوراً تذكارية، ثم عدت إليها مرة أخرى بعد فترة من الزمن فوجدت المسجد قائماً مكتملاً أو أنه قائم ولم يكتمل، وأرجو أن يكون الأمر هنا

كذلك، وأن نحضر مرة أخرى لافتتاح المسجد الجامع بعد أن يكون قد اكتمل، أو على الأقل لنرى أن العمل فيه قائم بجد واجتهاد.



منزل في ميكوب

قلت ذلك من باب الأمل والرجاء، وإلا فإنني لمست فيهم اختلافاً في الرأي، وعدم أهلية لتنفيذ هذا المشروع العظيم، والمراد بذلك المسؤولون في الجمعية الإسلامية الجديدة، ومنهم المفتي السابق وإلا إذا دعمت الحكومة المشروع وتعقبتهم، بل دفعتهم إلى ذلك دفعاً.

وقد قال لنا أحدهم: إن رسلان بانيتش المسؤول الحكومي عن مثل هذه الأمور، وهو الذي يتصدر الكلام عن المسجد، ويذكر مزية هذه الأرض وكيف يكون الجامع هو ليس متديناً، بل قالوا عنه في غيابه إنه شيوعي، وربما كانوا يريدون أنه كان من أعضاء الحزب الشيوعي السابق، وهذا

صحيح، فمعظم رجال الدولة في هذه الجمهورية الصغيرة وغيرها من أنحاء روسيا؛ بل من أنحاء الاتحاد السوفيتي السابق، هم كانوا من أعضاء الحزب الشيوعي من المسؤولين في الدولة الشيوعية، وعلى رأسهم الرئيس يلتستين رئيس جمهورية روسيا الذي ينادى الآن بنبذ الشيوعية بل نبذها فعلاً، وصار رمزاً دولياً على نبذها ومحاربتها.

وبينما كنا نشاهد أرض المسجد يسترعي الانتباه وجودنا بملابسنا العربية، ولرتل السيارات المتجمعة معنا خرجت من بيت مجاور عجوز ذكروا أنها شركسية وتكلمت بكلمات حادة مع المجتمعين ظننت أنها تنتقد وجود المسجد هنا لأن بيتها سوف يدخل فيه، ولكنهم قالوا لي إنها ترحب بوجود المسجد عندهم، وإنها مستعدة للمساعدة بما تستطيعه على بنائه.

مأدبة حكومية :

كان نائب رئيس الجمهورية قد أخبرنا بوساطة الإخوة الشركسيين أنه يدعونا لطعام الغداء على مأدبة حكومية في منتجع في الغابة التي تقع داخل التلال الخضر المطلية على المدينة من بعيد.

توجهنا في الواحدة والنصف، فصعدنا التلة التي هي غابة لا يبين لعين الناظر من أرضها شيء، حتى يخيل إليه أنها الأشجار تطاولت حتى طاولت التلال العالية لأنها لا يرى غيرها.

دخلنا إلى ما يشبه القصر الصغير المبني على طراز عتيق ليس فيه من الطراز الإسلامي شيء، وصعدنا إلى الطابق الثاني، فلقينا نائب رئيس الجمهورية، ومعه بعض الموظفين قد سبقونا إلى المكان، فكان ما فيه مما استرعى إخواننا له أنظارنا وهو قولهم: إن فيه حماماً نظيفاً، وإن وجود حمام نظيف في هذه البلاد التي كانت شيوعية فرصة يجب أن تنتهز إن كانت

بكم حاجة إلى الحمام.

وهذا قول عرفته أكثر من غيري من كثرة ما رأيته من إهمال الشيوعيين لمحلات قضاء الحاجة في طول البلاد التي ابتليت بهم وعرضها من الصين حتى بحر البلطيق، ومن بلغاريا حتى روسيا.

وكان الحمام في المبنى نظيفاً بالنسبة إليهم، ولكنه بالنسبة إلى مستوى الحمامات الموجودة في بلادنا دون ذلك.

ووجدنا فيه شيئاً آخر لازماً لهذه البلاد الباردة، وهو صف من المشاجب التي تعلق عليها المعاطف، أشاروا إليه باهتمام فعلقت عليه عباءتي.



على مأدبة الغداء الحكومية في مطعم الغابة

ثم جلسنا إلى مائدة مستطيلة قد ملئت بمقدمات الطعام التي كنت

عهدتها في الاتحاد السوفيتي السابق عندما زرته زيارة رسمية على رأس وفد من رابطة العالم الإسلامي عام ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م، وقد استضافونا وأكرمونا، فكنا نرى الموائد كلها حافلة بمقدمات المأدبة الكثيرة، ومنها هنا قطع من لحم البقر الناشف، وكذلك من لحم الدجاج، وسمك صغير، وسلطة عمادها الطماطم والخيار والفلفل البارد، وعادتهم أن لا يخلطوها خلطاً، وإنما يتركونها متمايزة في طبق واحد، أو يجعلون كل واحدة على حدة، والخبز نوعان، وكذلك الشراب، فهو شراب الفاكهة والماء المعدني المثقل بالغاز.

وهناك خضرات أخرى كالفاصوليا والباذنجان مسلوقة سلقاً خفيفاً، ووضعوها هنا بمثابة السلطة، ثم جاءت الأطباق الحارة، وهي الرئيسية عندهم ومنها حساء من الشعيرية المطبوخة باللحم، والأرز، ومنها لحم الغنم، والسمك اللذيذ.

وكان ختام المائدة الفاكهة التي هي التفاح والكمثرى، أما الفواكه التي اعتدنا عليها في بلادنا كالموز والبرتقال فإنها لا توجد هنا، وذلك أن بلادهم لا تنتجها، وليست لديهم وفرة من العملة الصعبة يستطيعون أن يشتروها بها، وأما الفاكهة الموجودة عندهم التي تنتجها بلادهم، فإنها كما قلت هي التفاح والكمثرى، ولكنها ليست في مذاق تفاح لبنان ولا كمثراه، ومثل ذلك (حب الملوك) وهو الكرز، فهو عندهم حامض غير لذيذ الطعم، ذكر لنا الإخوة العرب الشركسيون أن سبب ذلك عندهم هو برودة الجو، وقصر الفترة التي تشرق فيها الشمس على هذه الفواكه.

كانت المأدبة سخية، وكنا قد بعد عهدنا بالمآدب الساخنة الشهية، وذلك لشكنا في حل اللحوم التي تذبح هنا؛ لأن إخواننا المسلمين ذكروا أن طريقة الذبح لا تزال تجرى على ما كانت عليه إبان الحكم الشيوعي الذي يجري الذبح فيه عن طريق الخنق كما قالوا، وحتى إذا ذبحت الذبيحة ذبحاً

شرعياً فإنه إذا تحقق الإنسان أن ذابحها شيوعي فإنه لا يحل له أكلها لأن الشيوعي ملحد كافر، وليس من أهل الكتاب التي تحل ذبيحتهم من بين الكفار.

وأما اليوم فقد أخبرنا الإخوة عند الذهاب إلى المأدبة أن ما فيها هو من ذبح المسلمين، هذا وقد امتد وقت تناول الطعام لأنه كان يجري على الطريقة الأوروبية التي هي طريقة تعاقب الأنواع من الطعام، وخادم المائدة شخص واحد، لذلك كان يبطئ في عمله، وقد أفادنا ذلك إذ شغلنا الوقت كله بالحديث في شؤون هذه البلاد، وبخاصة ما يتعلق بالدعوة الإسلامية.

واستأذن زميلنا في الوفد الدكتور عدنان باشا، وهو المختص بالتربية والتعليم في الرابطة في طرح موضوع المنح الدراسية واستعداد الرابطة لذلك، فقال: إننا في رابطة العالم الإسلامي نستطيع أن نخصص منحاً دراسية لأبناء المسلمين في هذه البلاد للدراسة في جامعات المملكة وغيرها من الجامعات الإسلامية، فكان أن قال نائب رئيس الجمهورية: إننا واجهتنا مشكلة في طالب من طلاب المنح الذين يدرسون في بلادنا في مصر إذ أصيب بمرض استدعى أن تجرى له عملية جراحية، فلم تدفع له الجامعة التي يدرس فيها نفقات إجراء العملية، فكيف نضمن ألا يتكرر هذا عندكم؟

فقلت له: فيما يتعلق بالعلاج الذي منه إجراء العمليات الجراحية ليس هنالك مشكلة في بلادنا؛ لأن المستشفيات الحكومية عندنا تجري ذلك مجاناً للسعوديين، وللذين يحملون إقامات نظامية من غيرهم.

فقال: وماذا عن شهادات الجامعات الإسلامية، وهل هي معترف بها عالمياً؟

فأجبناه بالإيجاب وقلنا إن المتخرجين من الجامعات السعودية الذين يريدون أن يكملوا الدراسات العليا في الجامعات الأجنبية تقبلهم الجامعات

المشهورة في أوروبا وأمريكيا.

قال: وما هو نوع التعليم؟ قلنا: التعليم العربي والإسلامي؟

فلم يعجبه ذلك وإنما قال: إننا محتاجون إلى الطب والهندسة وغيرهما.

فقلنا له: إن مثل هذه التخصصات التي ذكرتها هي موجودة في بلادكم، وفي روسيا نفسها، وذلك سهل لمن تتوفر لديهم الإمكانيات العلمية والمادية، أما دراسة العلوم الإسلامية والعربية التي لا يوجد في بلادكم في الوقت الحاضر من تخصص منها، فإنها غير موجودة إضافة إلى قضاء طلاب المنح فترة من الوقت في البلدان الإسلامية يرون فيها كيف يعيش المسلمون ويتمرنون على إتقان العربية، وهذا لا يوجد إلا في البلدان العربية وبعض البلدان الإسلامية، ثم تبين لنا من النقاش معه أنه وهو الرجل الثاني في الدولة لا يريد أن تبعث الحكومة طلاباً لدراسة العلوم الإسلامية والعربية.

وبحثنا الأمر بعد ذلك مع الإخوة المسلمين، فاتفقنا معهم على أنه يمكن للرابطة أن تقدم المنح الدراسية لهم، وإنه يوجد طلاب متعطشون لهذا الأمر يمكنهم أن يأتوا مبتعثين من الهيئات الإسلامية أو بصفاتهم الشخصية.

ومما حصل في هذه المأدبة أن نائب رئيس الجمهورية وقد لاحظ تحرزنا من أي شيء يكون فيه كحول، وعرف ذلك أن قال: إن هناك (شمبانيا) خالية من الكحول فهل نحضر لكم شيئاً منها؟

فأخبرناه أننا لا نريدها أولاً لأننا لا نعرف أنه يمكن أن تكون هناك شمبانيا بدون كحول لأن ذلك عندنا كالذي يقول: هناك خمر بدون خمار، أو بدون إسكار، فالخمر هي الخمر سواء كانت كثيرة مسكرة أم كانت قليلة تبعث النشوة من دون أن تصل إلى حد السكر، لأن الرسول ﷺ يقول: (ما أسكر كثيره فقليله حرام).

وثانياً إنه لو كانت هناك بالفعل (شمبانيا) من دون كحول لما شربناها، فنحن لا نريد الاقتراب منها، ولا نجد في أنفسنا ميلاً إلى ذلك.

ونحن عرفنا وشاهدنا كثيراً من الناس في أوروبا وأمريكا لا يقربون (الشمبانيا) ولا غيرها من أنواع الخمور المسكرة لعدم رغبتهم في ذلك، وصيانة لعقولهم وصحتهم من غائلة الخمر، ولو لم يكن لديهم دافع ديني يمنعهم عن ذلك.

وقد تطرق الحديث في الجلسة إلى بعض أمور البلاد ومنها قولهم: إنها تنتج مقادير من النفط والغاز، ولكن لا يسد حاجتهم إليها مع قلة حاجتهم، غير أن النفط يأتي إليهم من روسيا التي يعتبرون جزءاً منها، لذلك ليست لديهم مشكلة تتعلق بتوفير النفط وبيعه بأسعار رخيصة.

وفيما يتعلق بالأعمال التجارية ذكروا أن الأعمال التجارية الحرة ممكنة الآن بدون قيود، ولا قيود إدارية من الإدارة المتخلفة السائدة في البلاد.

وقال لي أحد الإخوة بعد ذلك: إن من يريد أن يعمل في الأعمال التجارية الحرة، وبخاصة تجارة الاستيراد والتصدير لا بد له من أن يخصص جزءاً من المال لإعطائه الموظفين الذين لا تسير المعاملات عندهم إلا بمثل ذلك؛ لأن رواتبهم ضئيلة لا تكفيهم، ولم يربوا تربية تحرم عليهم أخذ مثل هذه الأموال بدافع وجداني، وإنما كانوا يخافون من العقاب الصارم على أخذ الرشوة في أيام الحكم الشيوعي بالنسبة إلى صغار الموظفين ومتوسطيهم، أما بالنسبة إلى كبار الموظفين من رجال الحكم الشيوعي، فإن مناصبهم تمنعهم من إلحاق الأذى بهم، وغالباً ما يكونون متسترين بأشخاص أصغر منهم، أو يكونون بعيدين عنهم من جهة السلطة.

إلى قرى الشركس:

مدينة (ميكوب) عاصمة جمهورية الإديغي الذين هم الشركس لا تمثل البلاد؛ بل إن الوضع السكاني فيها مروع، ذلك بأن مجموع سكانها يبلغ (١٦٠) ألف نسمة ليس فيهم من الشراكسة إلا ٢٠ ألفاً، أي الثُّمُن الذي هو جزء من ثمانية أجزاء.

ومع ذلك فإنه من باب المجاملة الشكلية للشركس أهل البلاد الأصلاء قسم (برلمانها) نصفين ٥٠٪ منه مخصص للشركس، و ٥٠٪ لغيرهم، وفيهم أقليات أخرى كالأرمن، وحتى اليهود توجد منهم أقلية، منهم رئيس بلدية (ميكوب).

ومع ذلك فإن العشرين الألف من الشراكسة هؤلاء هم مسلمون بالاسم، لا يعرفون عن دينهم، ولا عن تاريخهم المشرّف شيئاً، وإنما عرفوا من تاريخهم ما درسوه في المدارس الحكومية، ويعتمد كله على إظهار العلاقات الحسنة مع الروس، وكيف كان الاحتلال الروسي على بلادهم نعمة وأية نعمة، وكيف أنقذت الشيوعية الروسية البلاد من الخرافات الدينية بزعمهم. وصعدت بها إلى مدارج الرقي والتقدم.

ولذلك لا يوجد لهؤلاء المسلمين العشرين ألفاً مسجد واحد في العاصمة كما سبق ذكره، ولو كان منهم ألف شخص بل مائتا شخص من المسلمين الملتزمين العارفين بأمور دينهم لما بقوا على هذا الوضع.

كنا نتناقش مع الإخوة المسلمين في هذه الحالة الدينية المحزنة في العاصمة فيخبروننا أن هذه المدينة تعتبر مدينة روسية، لأن أول من أنشأها هم الروس ليجعلوها قاعدة لجيشهم، ثم بقوا فيها وانضم إليهم روس آخرون من العاملين في الجيش وغيرهم.



أنموذج للمنازل الشركسية الحديثة في ضواحي ميكوب

ولكن الإخوة الشراكسة الخلص يوجدون في قرى خارج العاصمة، وبعضها تقع بعيدة عنها، فاتفقنا على زيارة ما يمكننا زيارته من هذه القرى قبل سفرنا إلى جمهورية (قرتشاي شركس) يوم غد.

ركبنا سيارة الأخ (نهاد مراد)، وقرب الأخ يحيى علاء الدين أيضاً سيارته، فكان معنى ذلك أننا نكون في سيارتين، ونحرم من حديث أحد الأخوين، لذا رأينا أن نكون جميعاً في سيارة الأخ نهاد مراد لأنها أوسع، فهي من صنع مرسيدس كما تقدم، وأن يسوق بنا الأخ يحيى علاء الدين، وبذلك اتسعت لنا السيارة.

غادرنا مدينة (ميكوب) العاصمة قبيل الساعة الرابعة عصراً، فخرجنا متجهين جهة الشمال مع ضواحٍ من ضواحي المدينة كان مما استرعى انتباهي

فيها قنوات المجاري التي أسميتها في عدد من كتبي بالاستوائية، وإن لم تكن خاصة ببلاد الاستواء، وذلك لكونها كانت ظاهرة في كل المناطق الاستوائية من إفريقية وأمريكا وآسيا.

وهي أن تكون أمام المنازل قنوات مكشوفة كلها، وفي البلدان الأرقى يكون ما يحاذي أبواب الدخول إلى المنازل منها مسقوفاً، أما البلدان الراقية فإنهم يغطونها كلها، ويتعهدونها عن طريق فتحات تكون فيها، فلا تقف فيها المياه المستعملة.

وتكون في الغالب في البلدان المطيرة التي ينزل المطر فيها بكثرة، فيجري مع هذه القنوات حاملاً ما يكون قد تجمع فيها من مياه مستعملة، ويبعدها إلى حيث تصب في بحر أو منخفض من الأرض.

الريف الخصب:

وعندما غادرنا ضواحي المدينة وقعنا فجأة في الريف الخصب المعهود لنا منذ أمس، ذلك أن ضواحي المدينة غير ممتدة من هذه الجهة، فهي مدينة صغيرة نسبياً كما تقدم ذكر عدد سكانها، والناس فيها ليسوا بأحرار في بناء البيوت في الضواحي، لأن الأراضي الزراعية التي توزع عليهم في العهد الشيوعي ضيقة لا يكاد محصولها يفي بالضروري من القوت.

ولكن الريف الذي نراه الآن يكاد يكون مزروعاً كله، زرعته الحكومة، بعضه أخضر لأنه مزروع بمزروعات صيفية، وبعضه حقول صفر متخلفة من القمح الحصيد.

ومن الحقول الخضر حقول مزروعة بالذرة التي يريدون منها أن تكون علفاً للحيوان، وقد عجبت من ذلك مع وجود هذه الأعشاب البرية الواسعة، وربما كانوا رأوا في الذرة هذه نوعاً من العلف لا تسد مسده الأعشاب البرية

الكثيفة.



ريف بلاد الشركس

وكذلك رأيناهم زرعوا حقولاً بالشعير مع أننا في فصل الصيف، وأن ذلك الفصل عندنا غير مناسب لزراعة الشعير لكن صيفهم بمثابة الربيع عندنا، وهو إلى ذلك قصير.

وقد أخبرونا أن جميع هذه الحقول الخضر تشرب من السماء، فلا تحتاج إلى ري، وعجبت من كسلهم، وتكاسلهم في الزراعة التي لا تكلفهم شيئاً، وقال الإخوة: إن المشكلة تكون أحياناً في فصل الصيف هي تجفيف الأراضي التي تصيبها الأمطار الغزيرة.

ومررنا بقرية روسية، بمعنى أن كل أهلها من الروس في هذه البلاد

الشركسية المسلمة، رأيت بقربها أبقاراً معها راعيها وهي قليلة العدد.



منظر الحقول الكثيرة القريبة من مدينة ميكوب

وقال الإخوة المرافقون ونحن في السير في هذا الريف: إنكم أول وفد إسلامي يذهب للقرى الشركسية التي سنزورها الآن.

القرية التي تروست:

وليس معنى ذلك أنها رأست شيئاً، وإنما معنى (تروست) صارت روسية، واسمها (كَي ياتش) ذكروا أنها كانت قرية شركسية، ولكنها صارت بعد ذلك روسية بسبب كثرة السكان الذين سكنوها من الروس.

وبهذه المناسبة قالوا لنا: إن الفلاحين من الشراكسة هم أغنى من الروس، لأنهم يصبرون على العمل، ولا يضيعون وقتهم في شرب الخمور.

وقد أصبحت قرية (كي ياتش) الآن كبيرة فيها معمل للسكر وصوامع للغلال.

ومر الطريق فوق جسر على سكة من السكك الحديدية التي تسير عليها القطارات حتى تصل إلى موسكو.

وللقطار في الاتحاد السوفيتي مكانة عظيمة، لأن البلاد مترامية الأطراف، والطرق البرية فيها ليست على ما يرام، وإن كان السفر بالطائرات قد قلل في السنوات الأخيرة عدد المسافرين بالقطارات البطيئة.

وقد قدمت هذه الخطوط الحديدية من (أبخازيا): بلاد الأباظة الذين كانت بلادهم قد ألحقت بجمهورية جورجيا، ويقاتلون الجورجيين الآن بغية انفصالهم عنها وتكوين جمهورية مستقلة لهم.

وقد رأيت جنوداً من الشرطة يفتشون بعض السيارات، ولكنهم لم يتعرضوا لنا أو يوقفونا، وقال لي المرافقون: إن مثل هذا التفتيش لم يكن يحصل في السابق، ولكن الحرب التي يخوضها الأباظة - ولم أقل الأباظيون لئلا يشبه ذلك بالمنتمين إلى المذهب الإباضي - قد نشأ عنها كثرة السلاح بأيدي الناس، مما جعل الحكومة تتخوف من وقوعه في أيدي من قد يستعملونه ضدها.

ثم مررنا بقرية روسية أخرى، ولما سألتهم عن سبب انتشار هذه القرى الروسية في الريف الشركسي ذكروا أن أصل هذه القرى مراكز للجيش كانت الحكومة الروسية قد أقامتها في البلاد، استقر فيها الجنود بعد تقاعدهم، وانضم إليهم غيرهم حتى صارت روسية خالصة.

ومررنا بحقول أخرى مزروعة بحب كالعدس ذكروا أنه يؤكل كما يؤكل الأرز، وظني أنه نوع من العدس المعتاد؛ غير أنه أكبر منه حباً، وأن

العدس أحمر، وهذا أسود.

وقد أزهر هذا الحب بزهور بيض صغيرة تبدو على البعد وهي تتماوج كما تتماوج سنابل القمح.

النهر الذي لا يعرفونه :

مررنا بنهر سألتهم عن اسمه فلم يعرفوه، مع أن الأخ يحيى علاء الدين قد أمضى حتى الآن سنوات في هذه البلاد، وذلك لكثرة الأنهار فيها وكونها لا تسترعي الانتباه.

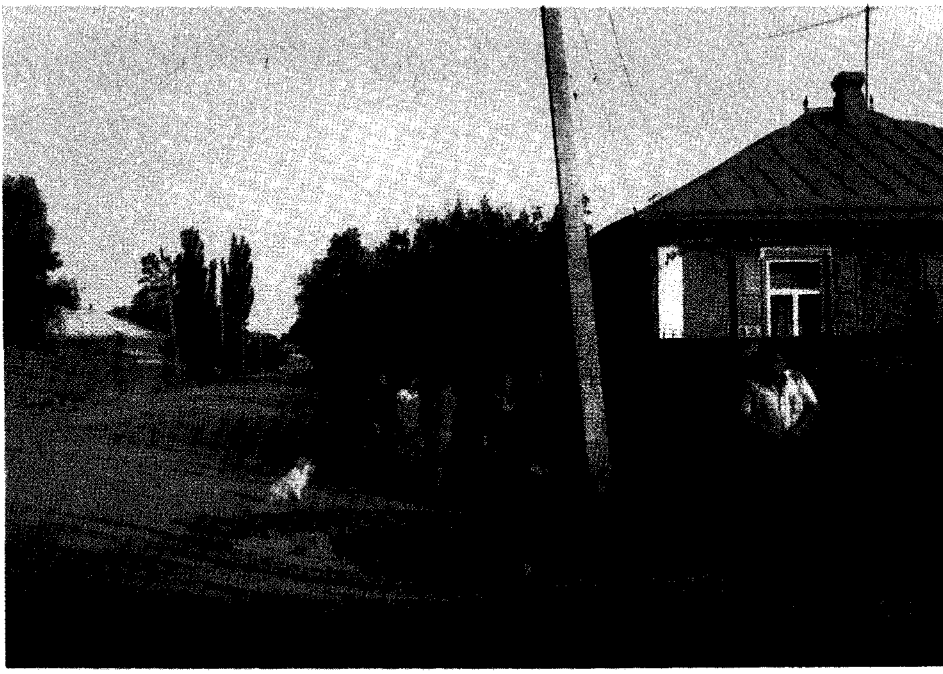
وقد غرسوا على الطريق أشجار الحور الفارعة المستقيمة القوام.

القريتان المتجاورتان :

بلغنا مسافة ٦٠ كيلومتراً منذ أن غادرنا العاصمة (ميكوب)، فوصلنا إلى قريتين متجاورتين إحداهما تسمى (قبة حَبَل)، والأخرى تسمى (حتز قاي)، وكلتاهما خالصتان للشركس المسلمين.

وقد ظهر التميز الشركسي في طراز البناء في القريتين؛ حيث تبنى البيوت على طراز تقليدي خاص فيه نقوش شركسية، وقد صورت بيتين منها هذه الصورة.

ذكروا أن سكان القريتين مجتمعين يبلغ ٤ آلاف نسمة، ورأيت جماعات من أهلهما من رجال ونساء يغلب عليهم جمال الصورة واعتدال الخلقة، مما جعلت أتذكر معنى شركسي باللغة اليونانية، وأنه الإنسان الكامل بمعنى الفارس الكامل، ومع ذلك لم نجد في القريتين كلتيهما مسجداً.



قرية قبة حبل في إديغي

تجاوزنا هاتين القريتين إلى منطقة أكثر انخفاضاً منهما، فبدأت حقول الأرز بالظهور، ولم نكن رأينا منها شيئاً في السابق، وذكروا أن الأرز يسقى من قناة ممدودة من أحد الأنهار لكونه يحتاج إلى المزيد من مياه الري كما هو معروف.

وقد اجتاز الطريق فوق هذه القناة وكأنها النهر الصغير الجم المياه، ووجدت فيها طائفة من الناس يسبحون ويتشمسون بعد السباحة.

رمز الضيافة الشركسية:

كثر ظهور البط منذ أن وصلنا القريتين الشركسيتين، وما زال يكثر حتى رأيت بعضه معه فراخه الصغيرة، وقال أحد المرافقين: إن البط تعد رمز

الضيافة الشركسية عند الفلاحين، لأنهم يكثرون من ذبحه للضيوف، وكثرة البط في مكان دليل على وفرة الماء والأعشاب، وهذا هو الحاصل هنا، إضافة إلى أن البط يستطيع الصبر على البرد الشديد أيضاً، لا بل قد يسبح في المياه الثالجة إذا وجد منفذاً فيها خلال الثلج.



البط في إحدى قرى الشركس

قرية شيش حَبَل:

وصلنا إلى قرية خصبة الأرض تسمى (شيش حَبَل) كان مما استرعى انتباهي أول ما دخلناها كثرة أشجار الفاكهة المثمرة فيها من التفاح والكرز والخوخ والعنب، وكلها قد أثقلتها ثمارها التي لم تنضج بعد، إلى جانب كثرة البط الأبيض الكبير والمخطط بسواد الذي هو في العادة أصغر منه، وربما صح القول إن السرب الواحد منها يبلغ خمسين أو ستين بطة، وذلك

كله في أزقة القرية، ولا أدري كيف يعرف البط بيت أهله، ولا كيف يعرفه أهله، إذا اختلط ببط آخر.

دخلنا القرية فسألنا عن شيخها الذي هو عضو في الجمعية الإسلامية السباعية التي انتخبت منذ وقت قصير كما قدمت.

سألنا عنه في أكثر من مكان، وترددنا في أزقة القرية، فكان ذلك فرصة للاطلاع عليها، ومعرفة الطابع الغالب على سكانها.

أما سكانها فإنهم كلهم من الشركس المسلمين في الأصل. وإن كان بعضهم غير ملتزم بالإسلام، بسبب التربية الإلحادية التي فرضت على المسلمين إبان الحكم الشيوعي.



شجرة الجوز الضخمة في منزل الشيخ دول تشراي غنجوقة في قرية شيش حبل

وهنا تجلى ما سبق أن سمعناه وقرأناه من أن الشركس والكرج الذين هم الجورجيون في الوقت الحاضر من أجمل الشعوب، فقد رأيت الماشيات في أزقتها يشهدن بذلك.

والغريب أن أهل هذه القرية يعيشون في جو ريفي يظن أنه يصيب من يسكن فيه بالقشف الذي هو الخشونة في المنظر، ومع ذلك فإن وجوههم ندية ومناظرهم تعطي الانطباع بأنها أجمل من مناظر الذين يعيشون في العاصمة.

ولا شك في أن من أسباب ذلك بعدهم عن خط الاستواء الذي ترسل الشمس عليه حزماً من الأشعة التي تصبغ الأجساد بالسواد، وبعدهم عن البحر الذي تركز أبخرته تلك الأشعة في الجو.

وأما الملابس هنا فإنها كالملابس في المدينة يكون لباس المرأة منها قميصاً طويلاً أقرب ما يكون إلى أن يكون ساتراً للجسم ما عدا الذراعين والعضدين في بعض الأحيان، والرأس يكون عليه منديل إلا بالنسبة إلى الفتيات فغالباً ما يكون حاسراً.

بيت شركسي:

طرق أحد الإخوة بيتاً فخرجت امرأة مسنة محتشمة ما لبثت أن فتحت باب البيت على مصراعيه عندما عرفت المقصود من الزيارة، فقد كان الأخوان العربيان الشركسيان معنا وهما (نهاد مراد) و(يحيى علاء الدين) يعرفان الشركسية، إن لم نقل إنهما يجيدان التحدث بها، فإذا بنا نجد الأخ الكريم صاحب البيت جالساً أمامه المصحف الشريف يتلو القرآن الكريم.

قدمه القوم وذكر اسمه الكامل بنفسه (دول تشراي غنجوقة)، وهذا اسمه لا يتضح منه ما إذا كان المسمى مسلماً إلا لمن له معرفة باللغة الشركسية، والأسماء فيها التي عرفنا أنها كثيراً ما تكون بعيدة عن الأسماء العربية، حتى يصعب رد بعضها الذي كان عربياً في الأصل إلى لفظه

العربي، مثلها في ذلك مثل أسماء القرى التي لا يقال فيها إن أصل أسمائها عربي، وهذا أمر طبيعي، فالقوم لهم لغتهم الخاصة العريقة؛ بل الموغلة في العراقة، حتى قيل إنها ترقى إلى زمن ما قبل البعثة المحمدية، وقيل إنها تصل إلى ما قبل ذلك من زمن ميلاد المسيح.

لأن الشراكسة كما هو قول المحققين العارفين أو أكثرهم ينتمون إلى الحيثيين الذي حكموا جزءاً مما يسمى الآن بأذربيجان وما قرب منه، ولم يبعدهم عنه أو لنقل لم يهزمهم ويضعف شوكتهم بعد ذلك، إلا السومريون العراقيون الذين كانوا يقاتلونهم مثلما كانوا يقاتلون غيرهم، فنزحوا شمالاً إلى هذه المنطقة، وسط منطقة القوقاز، ولذلك بقيت لهم لغتهم التي فيها ٥٨ حرفاً غير الإشارات والحركات، مما يجعل قسماً من حروفها غير معروف بالعربية، لذلك يصعب النطق به، وتعجز كتابته.



أشجار الفاكهة المثمرة في إحدى قرى الشركس (الإديغي)

رحب بنا الأخ (دول) ترحيباً حاراً، بل إنه فوجئ بهذه الزيارة التي لم يخبره أحد بموعدها، ولا بأنها سوف تحصل، وأسرعت امرأته جزاها الله خيراً تستعد لطبخ طعام وإعداده، ونحن الآن في آخر وقت العصر، فأسرع الإخوة المرافقون يثنونها عن ذلك، ويرجون من الأخ (دول) أن يفعل مثلهم، لأنه ليس لدينا وقت ننفقه في انتظار الطعام.

وبيت الأخ دول أشبه ما يكون بالدارة (الفيلا) لولا أن مقدمته الواسعة نسبيا هي مما يلي الشارع، وفيها شجرة من شجر الجوز المسمى بعين الجمل، أو القعقع مثمرة، بل إن ثمارها قد أثقلت أغصانها إلا أن الثمرة خضراء فجة.

ولاحظنا أنه لا يوجد تحتها حوض للري، فأخبرونا أنها لا تحتاج إلى سقي، وإنما تعيش من الندى الذي يكون في الأرض، وبهذه المناسبة ذكروا ما عرفناه من كون هذه المنطقة تشهد أمطاراً غزيرة في فصل الصيف، وثلجاً كثيفاً في الشتاء، وكل ذلك يمد الأرض بالرطوبة والندى المستمر.

طلبنا من الأخ الكريم الشيخ (دول) أن يذهب معنا لرؤية أرض المسجد الذي ذكروا أنهم بدؤوا به، ولم تكن سيارتنا تتسع لركوب راكب آخر، فذكر أن المكان قريب، وتقدمنا يمشي وسنه ٦٧ سنة، فهو موظف متقاعد، وهو كما قلت عضو الجمعية الإسلامية التي أنشئت قبل أيام وتقدم ذكرها، وقد أسموه من بين أعضائها (قاضي الجمهورية)، ووظيفة قاضي الجمهورية في جميع أنحاء ما كان يسمى بالاتحاد السوفيتي هي وظيفة أهلية غير رسمية لا يتقاضى شاغلها راتباً عليها من الحكومة ولا غيرها؛ لأن الحكومة لا تدفع أي راتب لأية وظيفة دينية، بل إنها إذا تركت أهل الدين وشأنهم من دون معارضة أو مضايقة عدّوا ذلك مكسباً عظيماً.

هذا كان شأنها في السابق، وهذا شأن الذين خلفوها على الحكم الآن، إلا بعض الحكام من أبناء المسلمين تكون لديهم عاطفة خاصة أو

تكون لهم مصلحة سياسية في أن يجاملوا المسلمين بإعطائهم أرضاً من الأراضي الحكومية الكثيرة بالمجان ليقيموا عليها مسجداً، أو حتى تعطيهم في الحالات القليلة مبنى حكومياً لتشغله إحدى مؤسساتهم الإسلامية، وأما الرواتب والمنح المالية فإن ذلك لا يحصل لهم.

المسجد القديم:

مررنا بأرض الجامع القديم الذي كان عامراً بالمصلين قبل استيلاء الشيوعيين على الحكم، فلم نجد له أثراً، وقال الإخوة المرافقون ومنهم الشيخ (دول): إنه كان في هذه الأرض التي ترونها الآن أرضاً معتادة لا تختلف عن غيرها.



في موقع المسجد القديم في قرية شيش حبل، على يسار المؤلف: الشيخ دول تشراي غنجوقة

فقلت له: إنه يمكنكم الآن أن تطلبوا إعادة الأرض؛ لأنها مملوكة

للمسلمين، وتسعوا إلى إعادة بناء المسجد الجامع القديم عليها، فذكر أنهم أضعف من ذلك، وأنهم قد عجزوا عن إقامة المسجد الصغير الذي نحن ذاهبون إليه.

ولا شك في أنهم من الناحية المادية المجردة عاجزون بالفعل عن ذلك، غير أن الذي أصعب منه هو أنهم عاجزون من الناحية النفسية والإدارية عن السعي في ذلك نتيجة لعهود الاضطهاد الشيوعي التي شلت الإرادات الفردية، وحاولت القضاء على الشعور بالاعتزاز الديني، وإلا فإنه لا يلزم من السعي في إعادة هذا المسجد القديم أن تكون لديهم مسبقا كل النفقات المادية لبنائه، وإنما يمكنهم إذا سعوا، وساعدهم إخوانهم في داخل البلاد، أن يتوجهوا بالدعوة إلى المساعدة إلى إخوانهم في خارج البلاد، وبخاصة المملكة العربية السعودية بلاد الحرمين الشريفين التي تساعد المسلمين في أقاصي الأرض وأدانيها على المشروعات الإسلامية، ولا شك في إنهم إذا فعلوا ذلك فإنهم سيدركون المقصود، لأنهم سوف يجدون التشجيع والتعضيد، ونحن في رابطة العالم الإسلامي مستعدون لذلك، ولكنهم لم يتصلوا بالرابطة من قبل لكونهم لا يعرفون كيفية الاتصال بها.

عندما رأينا الأرض التي كانت مسجدا جامعا، ولكن لم يبق فيها الآن أية علامة على ذلك ذكرت ما ورد في الأخبار عن خروج يأجوج ومأجوج، وذلك أن الإخباريين والقصاص من العوام وأشباههم، قد بالغوا في كثرتهم مثلما بالغوا في صفاتهم في الطول والقصر، فكان مما ذكروه عن كثرتهم أنهم إذا مروا بنهر شربوه كله حتى لم يبق فيه شيء، فإذا سأل آخرهم عنه أهل المكان قالوا: كان في هذا مرة ماء.

ونحن قلنا الآن - مع الأسف الشديد - كان هنا مرة جامع!!.

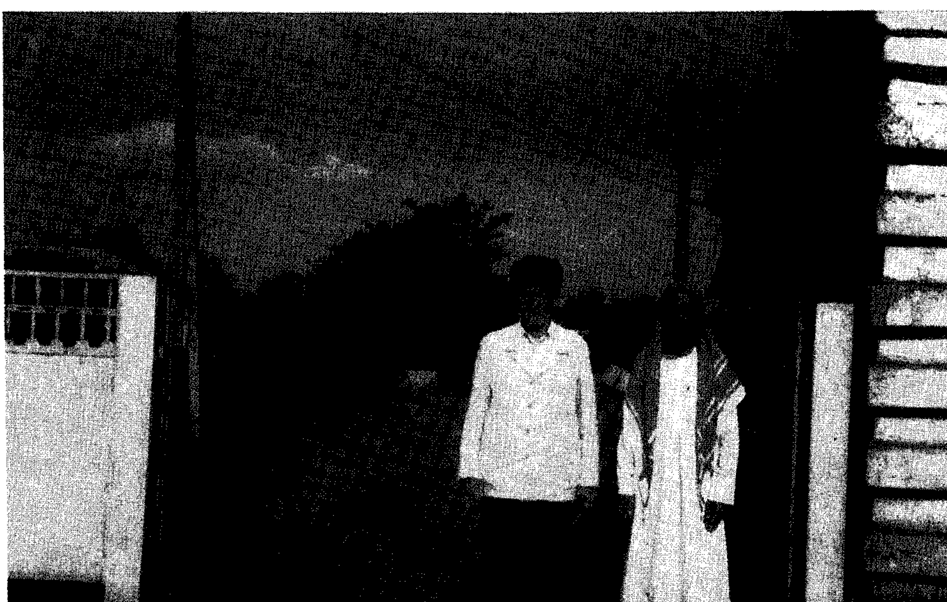
ويذكر أنه كان يوجد في هذه القرية قبل الحكم الشيوعي ثلاثة

مساجد هدمت كلها، ولم يبق منها مسجد واحد، مع أن سكان القرية كانوا أقل عدداً مما هم عليه الآن، وكلهم من الشركس المسلمين.

المسجد الجديد:

وقفنا في جانب من القرية على أرض قد غمرتها الحشائش والأشجار الوحشية، أي غير المغروسة التي قطعت من بعض الأماكن، فأشار المرافقون إلى أساس من الأسمنت المسلح القوي، وبجانب ذلك كومة من الخرسانة المسلحة الجاهزة للبناء، وقالوا: ها هو المسجد!

إنه أول مسجد أنشئ في هذه القرية قرية (شيش حَبَل) منذ دهر.



في موقع المسجد في قرية شيش حبل، المؤلف مع الشيخ دول تشراي غنجوقة القائم على المسجد

قالوا: وقد بقي أهل القرية دهراً وكلهم من المسلمين بدون مسجد!

فقلت لهم: إن هذا أمر محزن شهدنا مثيلاً له الآن في القريتين اللتين رأيناهما قبلكم؛ حيث يبلغ عدد سكانهما مجتمعتين خمسة آلاف نسمة ليس لهم مسجد حتى الآن.

قال الأخ (دول) وبعض أهل القرية يسمعون: لقد حصلنا على أرض مسجد من الحكومة بالمجان، وجمعنا الأموال الضئيلة من الناس أنفقناها على الأساس، ولدينا الآن (مائة ألف روبل) أي مائة دولار أمريكي دفعها رجل عربي زارنا في العام الماضي وأعطانا مائة دولار.

فأعطيناهم ألفي دولار أمريكي نقداً على الفور، وذكره الإخوة المرافقون بكونها تساوي الآن مليوني روبل، فاغرورقت عيناه بالدموع، وجعل يشكر الله ويدعو لنا، فأخبرناه بأن هذا المبلغ هو من رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، وأن المهم ليس هذا، وإنما في كوننا اطلعنا على المشروع، وسجلناه لدينا في الرابطة، فإذا لم يكف هذا وعجزوا لسبب من الأسباب عن المال، وكتبوا لنا يطلبون المساعدة على ذلك وجدونا مستعدين لذلك عارفين بالمسجد وعارفين بهم.

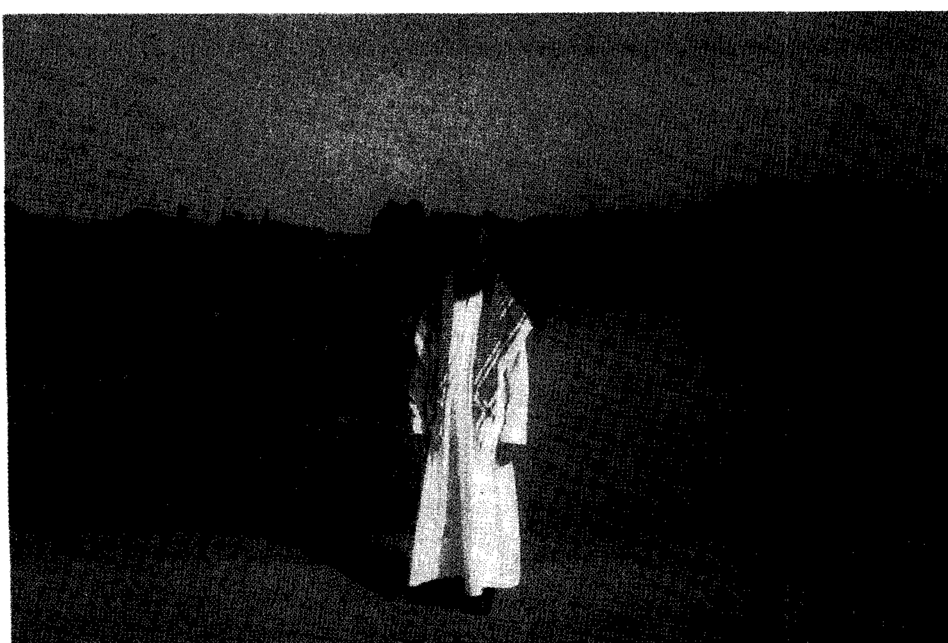
وقلت للأخ الكريم: إنه حدث في مرات كثيرة أن التقطنا صورة في مساجد لم تكمل، ثم زرنا المنطقة مرة ثانية فوجدناها قد كملت، وسنأخذ الآن صورة برجاء أن نجد المسجد مكتملاً عندما نزوركم مرة ثانية.

القناة الكبيرة:

ودعنا هذا الأخ الكريم وإخوانه من المسلمين أهل القرية وغادرناها، فمررنا بالقناة الكبيرة التي شقت من نهر (جاكورب) لكي تسقي مزارع للأرز وغيره في المنطقة وما بعدها.

وقد وقفنا عند القناة التي تشبه النهر الصغير إن لم نقل النهر المتوسط لكونها كبيرة، ورأينا عندها جماعة من الإخوة المسلمين الشراكسة، فكان الجامع بينهم وبين إخوتهم الآخرين الذين رأيناهم بعد ذلك في قرى هذه الجمهورية هو الدعوة إلى الطعام، فكانوا يذكرون لنا ويؤكدون الدعوة له فنعتذر بضيق الوقت.

وقد رأيت طائفة من الصبيان والغلمان يسبحون في القناة، وبعضهم يتفرجون فالتقط أحد الإخوة المرافقين هذه الصورة عند القناة، وقد دفعني إلى ذلك الحرص على أن أقدم للقارئ الكريم صورة عن حال هذه القرى الشركسية وأرضها.



على قناة نهر جاكوب في الإديغي

ثم عدنا مع طريقنا الذي جئنا منه، فمررنا بالقريتين الشركسيتين

اللتين مررنا بهما في المجيء، وهما (حتز قاي)، والثانية (قبة حبلى) الجنوبية، وكلتاهما ليس فيهما مسجد.

ولاحظت غنماً من الضأن كثيرة فيهما، وغنمهم ذات لون سكري يميل إلى اللون الرمادي حتى يخيل إليك أن الخروف أو الشاة منها يحتاج إلى تنظيف، بمعنى أنه يبدو كأنما أصابه وسخ، ولاحظت أنه ليس لها أليات، وإنما هي كالأغنام الأسترالية التي ترد إلى بلادنا من أستراليا، وهذه أصلها من بلاد الإنكليز، فهم الذين أحضروها إلى أستراليا، لأنه لم يكن في أستراليا عندما دخلها الأوروبيون أية ماشية من ماشية اللحم كالبقر والغنم فضلاً عن الإبل، وإنما كان الأهالي من السكان القدماء يأكلون ولا يزالون لحم الكنغرو، وهو كثير عندهم، والقياس أن يكون لحمه فيه شيء من الصلابة لأنه يشد عضلاته إذا ركض.

وهو حلال بلال لأنه ليس من ذوات الناب التي تفترس بأنيابها.

وأذكر فيما يتعلق بهذه الأغنام أنني صليت مرة صلاة الجمعة في مسجد علي بن أبي طالب في حي (لكمبي) من مدينة سيدني كبرى المدن الأسترالية، وكانت الجمعية الإسلامية قد أعدت لنا غداء بعد صلاة الجمعة في بيت الإمام الملحق بالمسجد، وكان الوقت وقت انتخابات، وقد حضر المسجد الجامع نائب رئيس حزب العمال، ومعه بعض العرب المنظمين للحزب، يريدون أن يبثوا دعاية بين المصلين العرب حتى يصوتوا لحزبهم حزب العمال.

لذلك دعاه الإخوة إلى مأدبة الغداء، فسألته عما إذا كان بالإمكان تربية الأغنام النجدية الكبيرة في أستراليا؛ لأنها تباع عندنا بثلاثة أضعاف ثمن الخراف الأسترالية، فقال: لا نستطيع أن نربيها هنا لأن مربي الماشية يعتمدون على صوف الأغنام الأسترالية في الدخل السنوي من مواشيهم، لأن صوفها ناعم وصالح للحياكة والنسج بخلاف صوف الأغنام النجدية.

وأظن أن القوم هنا أيضاً يستفيدون من أصواف هذه الأغنام القوقازية وإن لم أتأكد من كونه كصوف الأغنام الإنكليزية التي تنتج الصوف الإنكليزي الشهير.

كما أذكر أيضاً أنني كنت في جزيرة تسمانيا الواقعة إلى الجنوب من القارة الأسترالية، ولاحظت عدم وجود أناس فيها من سكان قارة أستراليا القدماء الذين يسمون هناك (أبو رجنال)، وقد رأيتهم في أنحاء عديدة من أستراليا، وكنت أتطلبهم وأبحث عنهم، وهم جنس مميز من الناس سود البشرة؛ لكن ليس فيهم جمال الإفريقيين السود، وإنما هم خشنوا الأجسام غلاظ التقاطيع لا تكاد تجد فيهم سليماً من أمراض أو عاهات جسدية أو جلدية، وكانوا ظاهرين أكثر في شمال أستراليا، وبخاصة مدينة (دارون) عاصمة المنطقة الاستوائية الشمالية من أستراليا.

وقيل: إنهم ليست عندهم قابلية للتطور والتعلم كما يتعلم غيرهم من الأجناس المعروفة، كما أنهم مغرمون بشرب الخمر، وقد تكلمت على شيء من أحوالهم في كتاب « وراء العمل الإسلامي في قارة أستراليا » ، وإنما المقصود هنا أن أقول: إن سبب عدم وجود طائفة منهم الآن في جزيرة تسمانيا مع أنهم كان يوجد منهم أناس فيها أن الأوروبيين أحضروا معهم بالبواخر من بلاد الإنكليزية أغناماً من أجل الانتفاع بلحومها وألبانها وصوفها وتنميتها، فما كان من أولئك السكان البدائيين الأستراليين إلا أن صاروا يغيرون عليها ويأكلونها من دون أن يدركوا أن ذلك سيجلب عليهم نقمة الأوروبيين وعقابهم، فكان أن عاقبهم الأوربيون على ذلك عقاباً شديداً؛ بل هو العقاب الأشد وهو القتل، وذلك لكونهم لم يرتدعوا بما دونه حتى لم يبق منهم في جزيرة تسمانيا أحد.

هكذا قيل لنا، والله أعلم بحقيقة الحال.

وعفواً عن هذا الاستطراد الذي ربما لا يكون ضرورياً.

وقريتان أخريان من دون مسجد:

وصلنا نهراً هو يسمى (نهر فرز)، والأنهار هنا عديدة، ولكن المهم لنا أن هذا النهر نهر (فرز) تقع عليه قريتان للمسلمين الشراكسة ليس في واحدة منهما مسجد!

وهذا نقص عظيم لا شك في أن مسؤوليته تقع على كل واحد منا، بحسب ما بلغه من علم، وما يستطيع أن يقدم من جهد ومال.

وأما نحن فإنه لم يبلغنا ذلك حتى الآن، بل الذي كان قد بلغنا هو عكس ذلك تماماً، وهو أن القرى الشركسية في هذه الجمهورية، عامرة بالمساجد بحيث أن كل قرية لا تخلو من مسجد، ووجدنا هذا غير صحيح.



المؤلف يحمل طفلة شركسية ريفية

والقريتان الأولى اسمها (ما مجغ)، والثانية اسمها (حاكورن حابل)، ويبلغ عدد سكان الأولى ألفي نسمة، والثانية خمسة آلاف نسمة.

والقريتان كاللتين ذكرتهما قبل قليل متجاورتان، وهما تؤلفان بلا شك بلدة متوسطة الحجم، وتقعان معاً على ضفتي نهر (فرز) هذا.

وقفنا على ضفة النهر وسط شمس حارة كأنها شمس البلدان العربية، غير أن المارة وبخاصة من النساء والأطفال يشعرونك، بل يؤكدون لك أنك في أوروبا، فالبياض الظاهر الذي كثيراً ما يجمع إلى بياض الأبدان شقرة الشعر، والجمال الغالب كل ذلك يشعرك بأنك خارج البلدان العربية، بل يشعرك بأنك في بلاد شمالية باردة، والتقطت عند النهر صورة لامرأة وطفلين شاهداً على ذلك، وكل السكان في القريتين من الشركس المسلمين.

لم نتلبث طويلاً عند النهر ولا في القريتين، فليس ما يدعونا إلى ذلك من مسجد أو من مشروع إسلامي نتفحصه، ونعمل على مساعدة أهله.

ومررنا مع شارع عام في الجنوبية منهما تكثر عليه المنازل التي زينت بالنقوش الشركسية الأصيلة، ولا تزينه منارة مسجد، بل ولا مسجد بدون منارة، ويقال مثل ذلك في المدرسة الإسلامية، فليس لها ذكر هنا فضلاً عن أن يكون لها وجود.

وقد عزمت على أن أرسل لهم من رابطة العالم الإسلامي شخصاً عربياً من أصل شركسي يقيم في هذه البلاد، ويعلم أهلها ما يلزمهم ويشرف على المشروعات الإسلامية من بناء المساجد، وفتح فصول الدراسة الإسلامية بإذن الله.

مررنا في الشارع العام من القرية الجنوبية بمقر محافظة القرية وهو مركز إدارتها، وبالمتحف المحلي الذي أقاموا أمامه تمثالاً لشخص شركسي

قاتل الألمان مع الروس أثناء الحرب العالمية الثانية، وطلب منه الألمان الاستسلام، لأنه لم يستطع مواصلة القتال فأبى أن يستسلم، وفجر في نفسه قنبلة قتلته، وقال: الحر لا يستسلم للألمان.

هكذا نقلوا عنه، ولكن الحر لا يستسلم للأعداء بمعنى يقاتلهم، أما إذا نفدت أسباب قوته، ولم يستطيع القتال، فإنه لا يجوز له أن يقتل نفسه، كما أن الحر لا ينبغي أن يستسلم للأعداء سواء أكانوا ألماناً أو غيرهم.

واسمه (حسين اندروخاي)، وهو ملازم أول في الجيش السوفييتي.

ومعظم بيوت الشارع العام الذي هو أهم شارع فيها مبنية بالآجر الأبيض، الذي طلي بعضه بالإسمنت، أما السقوف فإنها كلها بالصفيح، ويزعمون أنه نوع من الصفيح يستخرج من بلادهم، وأنه مقاوم للصدأ، ولا أدري أيريدون بلادهم هذه الشركسية أو الاتحاد السوفيتي السابق الذي تمثل أكثره في الوقت الحالي جمهورية روسيا الاتحادية، وظني أن المراد الثاني.

وكل البيوت مسنمة السقوف، أي ليست مسطحة، حتى تنزلق عنها مياه الأمطار التي تنزل مدراراً في الصيف، وحتى لا تتراكم عليها ثلوج الشتاء، وتسهل إزاحتها عنها إذا كانت مسنمة.

ومما يجدر ذكره أن البيوت التقليدية عند الشراكسة القدماء كانت تقام من القصب والأخشاب، وأن بناء البيوت بالآجر قد اتخذ في العهود الأخيرة.

مقبرة بلا ضريبة:

مررنا بمقبرة للشركس واقعة على الطريق، فنوّه المرافقون بأن الميت لا تؤخذ ضريبة على لبثه في قبره.

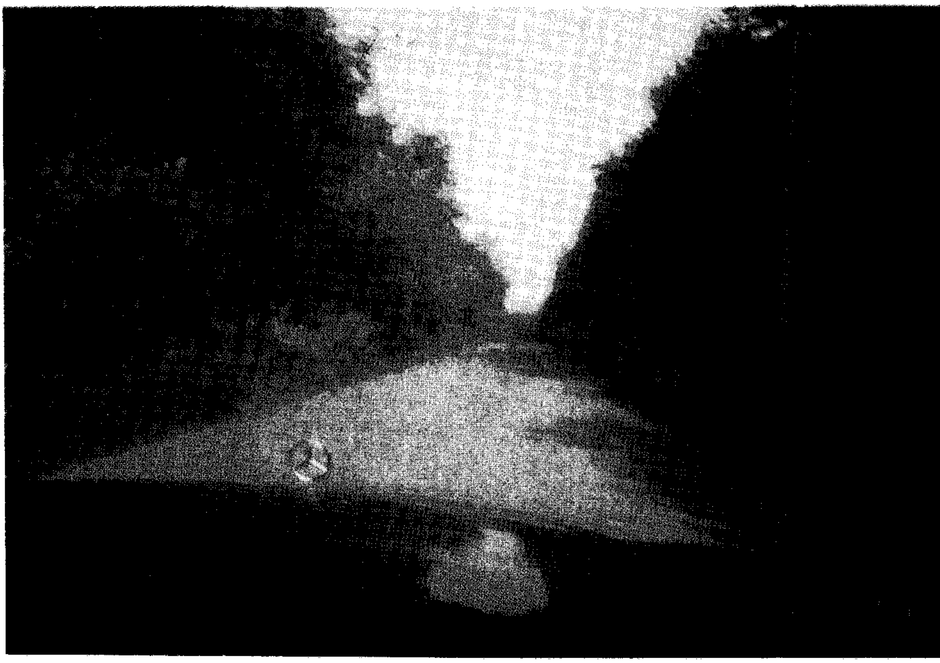
قالوا: وحتى الحي لا تأخذ الحكومة ضريبة على بيته، قلت: وهل هناك بيوت تستحق أن تؤخذ عليها الضريبة؟ إن بيوتكم صغيرة إلا في القرى، والأرياف حيث يمكن للفلاح أن يوسع بيته على حساب أرضه الزراعية، لأن الحكومة الشيوعية كانت قد صادرت البيوت الكبيرة، والبيوت التي تسميها زائدة عند الأفراد.

ومع ذلك فإن كون الميت يبقى في قبره بدون ضريبة هو أمر يستحق التنويه به في البلدان الأوروبية، ومن سار على منهج أهلها كالبرازيليين الذين مررت بمقبرة لهم في مدينة (بورتو اليقري) أقصى ولايات البرازيل الجنوبية، فرأينا المقبرة، وأخبرونا أنها تتقاضى ضريبة معينة على بقاء الميت في قبره، وإذا لم يدفعها ذووه قام المسؤولون عن المقبرة بأخذ عظام ما يتبقى من جثته وألقوها في مكان كالبئر أو أحرقوها، فكان الدفن فيها يتم لمدة معينة مثل استئجار البيوت للأحياء، فمن كان غنياً دفع لمدة طويلة ربما جددها، ومن كان فقيراً دفع خلاف ذلك.

هذا ولم أر في مقبرة الشراكسة هذه شيئاً يسترعي الانتباه مع أننا لم نقف عندها، وإنما واصلنا سيرنا جهة الجنوب الشرقي، وقد بلغت الساعة السادسة والنصف، وما يزال الوقت ظهراً أو كالظهر؛ لأن النهار ما يزال فتىً كما قال الأدباء الأقدمون.

فمررنا بقرية مشتركة السكنى، فيها روس وشركس وعدد قليل من التتار، والتتار كما نعرفهم مسلمون، ولكن ليس في القرية مسجد.

وقد اشتدت خضرة الأعشاب ونضارة الأشجار، وما شبهت نضارة الأشجار وكونها ريانة إلا بوجوه فتيات المنطقة.



الغابات في ريف الإديغي

(التقطتها من السيارة وهي تسير)

بلدة كوش أبل:

وهذه بلدة شركسية تضم خمسة آلاف نسمة، وهي بهذا تكبر أن تسمى قرية، ومع ذلك ليس فيها مسجد.

ثم وصلنا إلى قرية أخرى كتب على لافتة صغيرة فيها أنها تبعد (٨٣) كيلومتراً من العاصمة ميكوب، وهذا من الجهة الثانية للمدينة، وإلا لوكنا نسير في اتجاه واحد لبلغت المسافة ما بيننا وبين المدينة أكثر من مائتي كيلومتر.

ولم يعرف المرافقون اسم هذه القرية مع أنها كبيرة، والتقطت صورة لشارعها العام.

ووقفوا عند أول محطة لبيع وقود السيارات فيها، ولكنها داخلة عن الشارع العام، وهي أول محطة أراها على الطرق في هذه الجمهورية، فليس على طرقها السريعة محطات لبيع وقود السيارات مثلها في ذلك مثل سائر أنحاء الاتحاد السوفيتي، وإنما تكون المحطات في أماكن قليلة خفية.

وأهل السيارات يحملون في أكثر الأحيان مقادير إضافية من الوقود بأوعية في سياراتهم إذا لم يتسر لهم الحصول على الوقود من محطة للبيع لجؤوا إليها.

وعندما كررت السؤال عن عدم اهتمام سكان القرى بتأسيس مساجد في قراهم قال لنا المرافقون: إنهم أخذوا عادات الروس التي هي عمل وخمر ونوم.

فقلت: إن وجود المسجد لا يتعارض مع العمل والنوم، وأما الخمر فإن الروس أنفسهم قد ضجوا من الأضرار التي تلحقها بالبلاد شعباً وحكومة، وحاربوها بوسائل عديدة، ومن ذلك أن حرموا بيعها إلا في يومين من الأسبوع، وفي ساعات معينة منهما، أي ليس في كل اليوم، كما أنهم حرموا شربها أو حملها في الطائرات.

هذا وقد غادرنا هذه القرية بعد أن أخذوا في سيارتنا شيئاً من الوقود من تلك المحطة، وغرقنا بعد أن غادرناها في الريف الأخضر النضر.

ورأينا قطيعاً من البقر يرعى، ولكنه قليل العدد بالنسبة إلى كثرة المرعى في الريف، كما رأيت حماماً كثيراً يلقط شيئاً من الطريق، والحمام كثير عندهم، وأكثره بري فيما يظهر من أمره.

أول مسجد:

والمراد بذلك أول مسجد نشاهده في هذه الجمهورية بعد طول بحث عن المساجد فيها، ولعلك تذكر فيما مر عليك من حديث نائب رئيس الجمهورية قوله: إنه لا يوجد في بلادنا مسجد، إن كنت نقلته فيما نقلته من حديثه إلينا، وقد استدرك عليه أحد الحاضرين بقوله: إنه يوجد في الجمهورية مسجدان.

أما نحن فإننا لم نر مسجداً ذا مئذنة في هذه الجمهورية غير هذا، ولا نعتقد بوجود غيره كذلك، وإن كان أحدهم قد قال إن هناك مسجداً بدون منارة تابع لمقاطعة (كرسنا دار) أو قال: بقرب حدود (كرسنا دار).

وليس المراد بأولوية هذا أنه أول مسجد يقام في هذه البلاد، فهي بلاد كانت إسلامية منذ حوالي مائتي سنة؛ إذ دخول الشركس في الدين الإسلامي كان قبل مائتي سنة تقريباً، وعندما دخلوا في الإسلام بنوا المساجد، وفتحوا المدارس، وصاروا أقوياء في الدين، غير أن الشيوعية عندما ابتليت بها البلاد هدمت المساجد، وحرمت التعليم الإسلامي.

ولكن عندما انهزمت الشيوعية قبل ثلاث سنين تقريباً عاد الإخوة المسلمون في البلاد التي كانت تسمى الاتحاد السوفيتي يبنون المساجد، ويقيمون المدارس، ويحاولون أن يعودوا بها إلى ما كانت عليه قبل الشيوعية إلا ما كان من أمر الإخوة الشركس هؤلاء في هذه الجمهورية، فإن جهدهم ضعيف في هذا كما رأيناه ولمسناه.

دخلنا القرية التي فيها المسجد، واسمها (بلاي كاب تشسن)، ولاح لنا المسجد عندما أقبلنا إليه في منظر يسر البصر والفؤاد، فهو مبني بالآجر الأحمر والحجر الأبيض، وشكله متميز بقبته البيضاء ومنارته السداسية الأضلاع، وقد جعلوا فوقها وفوق القبة هلالاً بدون نجمة، كما فعلوا في

الشعار الذي وضعوه على المقبرة، لم يجعلوا النجمة في وسط الهلال كما يفعل سائر المسلمين في بلاد المهاجر حيث يكون شعارهم الهلال الذي تتوسطه نجمة، وأرجعوا سبب ذلك إلى كون الروس يتخذون النجمة دون الهلال شعاراً لهم، فلم يريدوا أن يكون شعار المسلمين كشعار الروس.



مدخل مسجد قرية بلاي كاب تشسن التي تبعد ١٠٠كم عن ميكوب

دخلنا المسجد مع بوابة له جميلة تقع إلى الشمال منه، فوجدناه ليس واسعاً من الداخل، وإن لم يكن ضيقاً، وليس فيه عمود، وإنما سقفه يكاد يكون كله قبة واحدة تعتمد على سقف مقبب واقف من خشب الجوز القوي قد ألبسوه من فوقه صفائح من حديد أبيض ذكروا أنه مقاوم للصدأ.

أما المدخل فإنه لا يصل إلى المسجد مباشرة، وإنما يصل إلى غرفتين واسعتين من اليمين واليسار بعدهما مدخل إلى المصلى الرئيسي في المسجد.

المسجد لم يكتمل بعد، ولذلك رأينا أكواماً من الحجارة التي قلعوها من جبال قريبة، ونقشوها هنا من أجل المسجد.

وبحثنا عن إمام المسجد أو المسؤول عن عمارته، فلم نجد أحداً منهما، ووجدنا رجلاً ومعه عدة نساء واقفاً عند باب بيته، فسألناه عن اسمه فذكر أنه (زاوربي) وأنه مسلم بن مسلم مع أن اسمه ليس من الأسماء الإسلامية المألوفة لنا.

وهذا أمر لاحظناه على أسماء الإخوة المسلمين في هذه البلاد أن أسماءهم ليست كالأسماء الإسلامية المألوفة في البلدان العربية.

أول ما فعله الأخ (زاوربي) أن دعانا لتناول الطعام في بيته، فشكرناه وأخبرناه أننا لا نملك الوقت اللازم لذلك.



منظر عام لمسجد قرية بلاي كاب تشسن التي تبعد ١٠٠ كم عن ميكوب

وقد أخبرونا أن قرية (بلاي كاب تشسن) هذه تبعد ١٠٠ كيلومتر عن

ميكوب العاصمة، كما تبعد ٣٥ كيلومتراً عن حدود جمهورية الإديغي هذه.

حمّلنا عدداً من أهل القرية رسالة إلى المسؤولين عن المسجد وبخاصة الإمام ورئيس جمعية المسجد.

وكان الحديث كله يدور باللغة الشركسية التي يحسن الكلام بها أخوانا المرافقان: (نهاد مراد)، و (يحيى علاء الدين).

وقبل أن نترك المنطقة، رأيت في فناء المسجد المكشوف وهي أشبه بالمزرعة الخضراء من كثرة العشب والتفافه خيلاً ترعى، فذكرت بذلك خيل المغول التي كنت قد قرأت عنها كثيراً في كتبنا العربية، وكيف كانت عماد غزوهم، وعندما رأيتها تصورت أنها تمثل القوة أكثر مما تمثل السرعة في الطرد، فهي ثقيلة غير رشيقة، وقد صورتها وذكرت ذلك في كتابي: «في شمال شرق آسيا ».

العودة إلى ميكوب:

بدأنا العودة إلى ميكوب في السابعة والنصف فدخلناها مثلما دخلناها لأول مرة مع شارع الحمراء الطويل المستقيم الذي يقع عليه فندق (إديغي) الذي لم تعجبنا نظافة الغرف فيه، وقد ذهبنا إلى فندقنا فندق ميكوب فجمعنا الأوراق والنقود التي خصصناها لهذه البلاد، وهي قليلة بالقياس إلى ما نعرفه نحن وأمثالنا من قيمة النقود عندهم، ولكنها بالنسبة إليهم تعتبر كثيرة لهبوط قيمة العملة الوطنية، وهي الروبل الروسي الذي يتقاضون به رواتبهم، ولقلة مداخيلهم.

في رئاسة الجمهورية:

كنا على موعد اللقاء في التاسعة والنصف بنائب رئيس الجمهورية

وأعضاء الجمعية الإسلامية وأهل المسجدين اللذين رأيناهما اليوم أحدهما تحت التأسيس، والثاني على وشك أن يتم.

وقد أعطيناهم مبالغ مالية قليلة، وبيّنا لهم أنها أشبه بالعربون بالنسبة إلى علاقتنا بالإخوة المسلمين هنا إذا ما سارت هذه المشروعات على الوجه المطلوب، وقدموا لنا مشروعات جديدة مستكملة للشروط ساعدناهم عليها فيما بعد.

كما وقعنا معهم محضراً يتضمن بيان بعض ما يحتاجه العمل الإسلامي في هذه البلاد، وما تستطيع الرابطة أن تساعدهم به من ذلك.

ولم نفرغ من ذلك إلا في الحادية عشرة، وكنا بحاجة للعشاء إلا أنه لا يوجد عشاء في الفندق؛ لأنه ليس فيه مطعم كما لا يوجد أي مطعم في مثل هذه الساعة، وحتى لو كان الوقت مبكراً فإنه لا مطعم نظيف يضمن فيه أنه لا يكون فيه إلا اللحم الحلال، ولذلك تناولنا أشياء ناشفة مما كنا نحمله معنا أحضرناه من المملكة لمثل هذه المناسبات لعلمنا بصعوبة الحصول على الطعام الحلال في هذه البلاد.

يوم الإثنين: ٢٢/ ١/ ١٤١٤هـ.

مغادرة إديغيا :

أصبحنا على وشك مغادرة هذه البلاد الإديغية الشركسية، فكان أول ما صنعناه أن ذهبنا إلى رئاسة الجمهورية من أجل ختم بعض الأوراق التي تحتاج إلى تصوير، وذلك لما أخبرونا به أمس من أن رئاسة الجمهورية ليست فيها آلة تصوير الأوراق، واحتاج المرافقون إلى أن يبحثوا عن آلة للتصوير في صباح هذا اليوم.

ولك أن تعجب من رئاسة حكومة لا توجد فيها آلة لتصوير الأوراق.

ثم جاء أحد الإخوة وكان قد ضمن لنا أن يستأجر لنا حافلة صغيرة تنقلنا مع أمتعتنا الثقيلة إلى مدينة (شركسك) عاصمة جمهورية (قرتشاي شركس) استأجرها من مكتب حكومي بأجرة رخيصة هي: ٧٠ ألف روبل أي ٧٠ دولاراً أمريكياً.

مع أن المسافة ما بين ميكوب إلى شركسك (٢٥١) كيلومتراً.

كان أول من رأيناهم في شوارع المدينة عاملات ثقيلات الأوزان قد أقبلن بأشياء من الخضرات في عربات يدفعنها بأيديهن.

عود إلى الريف الأخضر:

غادرنا ميكوب في التاسعة من الصباح مع ضاحية خصبة بحيث رأيت أهلها يزرعون مكان الرصيف في جنب الشارع من أجل أن ينتفعوا به كما يفعل أهل خوارزم وفرغانة في بلاد ما وراء النهر، ومعنى زراعتهم أنهم يهيئونه، يضعون البذر فيه، وإلا فإنه لا يحتاج منهم إلى سقي، وإنما يشرب من ماء السماء.

ولذلك رأيت أبقاراً في مكان آخر من موضع الرصيف في الشارع ترعى فيه، لأنه غير مزروع، وإنما فيه أعشاب كثيرة ملتفة.

ووصلنا إلى الريف النضر، فكثرت الحقول ومنها حقل لعباد الشمس أو دوار الشمس، وقد أزهر بزهور صفر فاقع لونها.

والمشكل في هذه السفرة أن سائق السيارة روسي لا يعرف من اللغات إلا الروسية، وليس فينا من يفهم منها شيئاً، وقد حاولنا أن نجد من الإخوة أهل البلاد من يذهب معنا حتى مدينة (شركسك)، ولكننا لم نجد لأن من

يحسنون العربية لا يعرفون المنطقة، والذين يعرفون المنطقة، وهم قلة لا يعرفون العربية.

ومن عجب أن كثيراً من أهل هذه البلاد السوفيتية لا يعرفون الجمهوريات المجاورة لهم، وذلك لعادة اعتادوها تحت الحكم الشيوعي الذي لم يكن ينظر لتجول الناس في البلاد بعين الرضا إلا في نطاق محدود ثم أصبح ذلك مألوفاً لديهم لقلة المال عندهم.

وقد مررنا بنهر لم نعرف اسمه، فسألنا السائق بالإشارة عن ذلك فلم يفهم المقصود لأن السيارة كانت قد بعدت عنه.

وخير ما فيه أنه مثل أكثر السائقين الروس هنا لا يلتفت إلى أي شيء إلا لسيارته، فلا يبين على خلجات وجهه أي انفعال بما يدور حوله، فضلاً عن أن يتكلم أو يمزح مع الركاب.

الجامعة العربية واللغة العربية:

لم نجد مجالاً للحديث مع السائق ولا عن الطريق، فصرنا نتحدث فيما بيننا، ومن ذلك أن قلنا في معرض قلة من يعرفون العربية في هذه البلاد التي كانت تعتبر بلاداً إسلامية ولا يزال طائفة من أهلها الشركس مقيمين فيها ويصعب عليهم في ظل ظروفهم الثقافية والاقتصادية أن يستطيعوا تعلم العربية فقلنا: ماذا يضير الجامعة العربية التي هي جامعة دول عربية تضم إحدى وعشرين دولة، فيها دول غنية بالمقاييس الدولية من حيث الثروة المالية والمداخيل التي تدر العملات الصعبة، وفيها دول غنية بالرجال الذين يستطيعون أن يكونوا مدرسين ناجحين أن تنشئ في بلاد المسلمين المحتاجة هذه مدرسة عربية واحدة في كل مجموعة إقليمية من هذه الدول تجلب التلاميذ لها من دول المجموعة الإقليمية، فمثلاً يكفي لشمال القوقاز مدرسة

واحدة، ويكفي لجنوب القوقاز مثل أرمينية وبلاد الكرج (جورجيا) وما فيها من أقاليم للمسلمين مثل أبخازيا وأجاريا مدرسة، بحيث تكون المدرسة المذكورة مدرسة عربية كبيرة راقية مستكملة للوسائل التعليمية اللازمة، وتعترف الحكومات العربية بشهاداتها، وتسعى للدول المعنية أن تعترف بشهاداتها أيضاً، وسوف تفعل تلك الدول ذلك إذا كانت مناهجها قوية ومستوى التدريس جيداً.

وقال أحدنا: هذا لو كانت الدول العربية متفقة فيما بينها على العمل النافع.

وقال آخر منا: يكفينا من الدول العربية في هذه المرحلة الحرجة من تاريخنا أن تكف بعضها عن بعض، وألا تبدد الطاقات العربية في نزاع العرب بعضهم مع بعض!!!

واستمر الطريق الريفي الأخضر الملتف الذي يشبه الجنة الأرضية، لأنه بجانب خضرته الداكنة هناك الزهور المبتسمة للقيظ الجميل في هذه البلاد من وردية وصفراء وبنفسجية وبيضاء، والشيء الذي عجبت له أن هذه الجنة الأرضية ليس فيها من متريض أو متنزه، بل ليس فيها أحد إلا الذين يعملون فيها عندما تقترب منا القرى، حتى المزارع الكبيرة، وكلها مزارع حكومية أو من المزارع الجماعية التعاونية شبه الحكومية، ولذلك لا ترى فيه أحداً.

وعجبت من شيء آخر، وهو أنني سبق أن رأيت الاتحاد السوفيتي ورأيت أراضي واسعة من أراضيه صالحة للزراعة، وكثير منها مزروع بالفعل، وبعضها مثل هذه الأراضي ذات الحقول النضرة، فذكرت أنه يستورد مقداراً من الغذاء، ومنه القمح فأعجب من قلة البركة فيه.

إلى بلاد القرتشاي والشركس:

هذه البلاد التي غادرناها اسمها (جمهورية الإديغي)، والإديغي: اسم للشركس يقولون إنه الاسم التقليدي القديم لهم، والجمهورية لهم رغم كونهم الآن ليسوا الأكثرية بين سكانها، وإنما الأكثرية فيها من الروس والأوكرانيين والروس البيض ومن لف لفهم من الأوروبيين وأشباههم كالأرمن.

وقد سهل الروس الحاكمون لأولئك أن يحضروا إلى هذه البلاد ويسكنوا فيها، بل أن يؤسسوا فيها القرى والبلدان حتى عاصمتها (ميكوب) كانت في مبدأ تأسيسها قلعة روسية، وأصروا بعد ذلك على أن هذه البلاد هي بلاد الشركس، وهذا صحيح في الأصل، ولكنه صار غير صحيح بالفعل؛ إلا في كون الإمارة وهي رئاسة الجمهورية وما يتبعها من الوظائف الكبيرة في الدولة إنما يشغلها الشركس الذين لا يخرجون عن طاعة الأكثرية، بل لا يخرجون عن أوامر الأكثرية من غيرهم.

فذكرت بهذه المناسبة ما قاله رجل من أهل بلدنا اسمه (دبيَّان)، وكانت له زوجة اسمها ثرياً أصرت على أن يعطيها نخلة من نخلات له قليلة يقال لها الشقراء، فقال لمن حضر عنده: اشهدوا أن النخلة لثريا، وأن ثريا والنخلة لدبيّان.

فرضيت زوجته، ربما كان رضاها مثل رضا هؤلاء الإخوة الذين لم يسألوا الرضا عما يقوله الأجانب ويفعلونه.

أما الجمهورية التي نحن ذاهبون إليها الآن وهي جمهورية (قراتشاي شركس) فإنها مخصصة لطائفتين من الإخوة المسلمين أحدهما القرتشاي وهم من المسلمين الذين يتكلمون لغة متفرعة من اللغة التركية، وكلهم من المسلمين، ولهم الأكثرية في الجمهورية يساكنهم فيها قوم من الشراكسة

هم أقلية عددية فيها.

وخُيِّل إليّ ونحن نبتعد عن مدينة (ميكوب) ومنطقتها أن الريف الأخضر البديع قد خفت خضرته، وإن كان لا يزال أخضر، ولا تزال الحقول وحقول الأعشاب الخضر - إن صح التعبير - هي السائدة في الطريق، وقد بقي على الوصول إلى مدينة (شركسك) عاصمة جمهورية (قرتشاي شركس) ٧٠ كيلومتراً.

وما يزال الحديث - أيضاً - مع الرفقة إذ ليس معنا أحد من أهل هذه البلاد يطارحنا عنها حديثاً مفيداً.

وقد مضت ساعتان منذ أن غادرنا (ميكوب)، ولم تتوقف عجلات السيارة؛ بل لم تهدأ.

قرية ايفانويسك:

وبعد أن لم يبق على الوصول إلى (شركسك) إلا أربعون كيلومتراً وصلنا إلى قرية كتب عليها اسمها (إيفانويسك)، وهذا الاسم روسي مكتوب بحروف روسية، ولا ندري عن سكان القرية شيئاً، ولكن الذي يظهر من اسمها أنهم روس.

غير أنني رأيت فيها بطاً ضخماً كبيراً، وعادة هذا البط أن يكون كثيراً في قرى المسلمين، وإن كان يوجد في قرى الروس، ويحف بهذه القرية من جهة الشمال نهر جم المياه تتدفق مياهه تدفقاً، ويخيل لمن يراها أن القوم لا ينتفعون بشيء منها لعدم حاجتهم إلى ذلك.

وبجانبها بيوت إسمنتية حديثة، بمعنى أنها حديثة البناء، وليست حديثة الطراز، فطابع الحياة هنا كلها قديم، وليسوا في وضع يمكنهم من تحديث ما عندهم، وإنما رأيت مصنعاً لقوالب الإسمنت الجديد المسمى بالخرسانة

الجاهزة المسلحة غير بعيد عنها.

ورأيت في طرف هذه القرية قرويات جالسات على قارعة الطريق يبعن بعض ما عندهن للمارة، وهو نزر قليل، من ذلك شيء من القرع الصغير (الكوسة)، والبطاطس، ومع ذلك كان معهن رجل، وقدرت ثمن كل ما معهن ومع الرجل بما يساوي عشرة ريالات سعودية.

ولاحظت هنا ما لاحظته من قبل وهو عدم وجود استراحات أو مقاهٍ، أو مقاصف في الطريق؛ بل إنه رغم مناقضته كل المناقضة للصحراء فإن الذي يسير فيه يحس كأنما هو يسير في الصحراء العربية قبل ٤٠ سنة من هذه الناحية.

وإذا أراد شخص أن يشرب شيئاً أو يأكل شيئاً فيه كان عليه أن يحمله معه.

هذا هو الذي رأيته، ولا أدري أيكون في داخل القرى مقاصف يستريح فيها المسافرون إذا أرادوا، ولكنني لا أظن ذلك، لأنني زرت بعض القرى وتأملت داخل شوارعها فلم أجد فيها شيئاً ظاهراً من هذه المقاصف أو المقاهي.

وحتى الماء الصافي للشرب لا يوجد إلا إذا سأل الراكب أهل القرية سؤالاً أو استجداه منهم استجداء هذا إذا لم يشرب ماء النهر أو ماء القنوات غير الصافي.

حتى الحافلات:

حتى وسائل النقل العامة كالحافلات لا توجد في هذه الطريق، وكنا سألنا عن وجود الحافلات لننظر ما إذا كنا سنركب فيها إذا كان الأمن فيها جيداً، فأخبرونا في (ميكوب) أنه لا توجد حافلات أصلاً بين هذه العاصمة الإقليمية والعاصمة الأخرى التي نحن ذاهبون إليها، وهي

(شركسك).

قالوا والوسيلة الوحيدة من وسائل النقل العامة هنا هي القطار، وهو لا يذهب قاصداً في العادة، وإنما يميل يميناً وشمالاً لبعض القرى والبلدان، ومع ذلك ليس هو بآمن في هذه الأوقات.

ولذلك رأينا مشاهد عديدة تدل على ذلك في أناس واقفين عند القرى على الطريق يسألون السيارات أن يحملوهم، ومن ذلك منظر امرأة معها طفلتها وهي تشير للسيارات العابرة من دون أن يقف أحد لها.

ومررنا بنقطتي تفتيش لم يوقفونا عندهما فضلاً أن يفتشوا سيارتنا، وكان أهل ميكوب قد أخبرونا أن هذه البلاد وهي مجاورة لأبخازيا بلاد الأباظة التي فيها ثورة مسلحة ضد جمهورية الكرج (جورجيا) يخشى أن تتسرب منها الأسلحة لأقوام يعادون النظام.

فكان جنود الشرطة يفتشون بعض السيارات بحثاً عن الأسلحة.

قرية زيل شونوسكا:

وصلنا قبل ٢٠ كيلومتراً من شركسك إلى قرية اسمها (زبل شونوسكا)، ولم نستطع الحصول على أية معلومات عنها لما ذكرته، وإنما رأيناها على نهر صغير ترعى على ضفته أبقار ضخمة كثيرة، وأول حمار رأيناه في هذه المنطقة، وهو من النوع الرديء من الحمير لصغر جسمه، كما رأينا سرياً من البط الأبيض الضخم يتبختر في مشيته وكأنما هو يتكبر.

ثم دخلنا مدينة (شركسك) والحديث عنها وعن جمهورية (قرتشاي شركس) وجمهورية قبرداي بلغار التي زرناها بعدها في كتاب: « بين بلاد القرتشاي وبلاد القبرداي » والله يتولى هداك وهداي.

خاتمة:

رأينا أن نختم حديثنا عن هذه الرحلة في بلاد الإديغي من الشركس ببيان يتضمن الملاحظات التي لاحظناها على الأوضاع السائدة في منطقة القوقاز، حيث شملت رحلتنا أكثر من جمهورية صغيرة فيها كما تقدم، وذلك على ضوء التغيرات التي شهدتها المنطقة كلها، كما نتبعه بالاقتراحات والتوصيات التي نراها مهمة لتشجيع العمل الإسلامي في هذه البلاد من الوطن الإسلامي الواسع.

١- رغم حماس المسلمين للاهتمام بالنشاط الإسلامي إلا أن الإمكانات العلمية والمادية محدودة، فالجماعات الإسلامية متعطشة لمعرفة أحكام دينها، ولكن ينقصها الدعاة والعلماء والكتب ووسائل التوعية والإرشاد.

٢- لا زال الشيوعيون وإن تغيرت شعاراتهم يسيطرون على مقاليد الأمور، وأصبح تفاعل هؤلاء المسؤولين بالنشاط الإسلامي يعتمد على قناعات شخصية، أو يعتمد على ما لدى المسئول من خلفية إسلامية أو من التزام شيوعي.

٣- القوى العلمانية والباطنية وهيئات التنصير والنفوذ الأوروبي الأمريكي والنفوذ اليهودي تعمل على بسط نفوذها وفرض أفكارها، ومبادئها من خلال المساعدات الاقتصادية والعلاقات الثقافية والسياسية.

٤- الأمية الدينية وفقدان الدعاة الإسلاميين الأكفاء وانعدام التوعية والإرشاد الصحيح مع انتشار الفقر أدى ذلك إلى نجاح عمليات التنصير وحركات القاديانيين التي استغلت ظروف المسلمين الاقتصادية والفراغ الروحي لأهدافها الإستراتيجية.

٥- تدهور الوضع الاقتصادي بسبب توقف الإنتاج وازدياد البطالة وارتفاع

الأسعار وتدني قيمة الروبل أدى إلى فقدان الأمن وتزايد عمليات السطو والسرقات وانحراف الشباب وخراب الذمم والأخلاق.

٦- اضطراب الوضع السياسي بسبب انهيار الحكم المركزي المفاجئ وارتباك رجال الحكومات المحلية في استيعاب التغيير الجديد وضعف قدراتهم الشخصية في التحرر من النظام السوفييتي البائد والتبعية الثقافية والسياسية والاقتصادية التي لا تزال الجمهوريات الإسلامية تعانيها بسبب ارتباطها الطويل بروسيا علاوة على فقدان الخبرة والمعرفة لمعالجة القضايا الإنمائية ووضع منهج سياسي لإنقاذ المجتمع من الضياع كل ذلك وقف حائلاً أمام الانتعاش الإسلامي.

٧- المسلمون يشعرون بإسلامهم، ولكن ترجمة هذا الشعور والإحساس إلى عمل لا يتم بشكل صحيح وواضح أحياناً، وفي بعض الجمهوريات الإسلامية بسبب قلة ثقافتهم الإسلامية، وتجارب المسلمين من الاضطهاد الشيوعي في السابق وسيطرة الشيوعيين وأتباعهم على الإدارات الدينية في العهد القديم.

٨- التخلف الحضاري والأزمة الاقتصادية الخانقة التي تعيشها المجتمعات الإسلامية مما يعيق انطلاق العمل الإسلامي إلى مجالات أوسع وأشمل، ويفتح المجال للقوى المعادية لاستغلاله لأنشطتها وأعمالها وفرض شروطها، علاوة على أن تبلد الإحساس الوطني بسبب الخلفية التربوية والاستكانة للحكم الأجنبي طويلاً مما يمنع القوى المحلية من وضع خطة وطنية لإصلاح الأوضاع وتعزيز السيادة الوطنية.

٩- كان النظام الشيوعي السابق قد صير الناس آلات صماء تؤدي ما هو مرسوم لها بدون تفكير وتدبير وتوفر لها ما يسد رمقها بعمل أو بدون عمل تسبب في الانهيار الاقتصادي الرهيب الذي يعانيه الناس الآن، إذ لم يتعود

الناس أن يفكروا في مشروعات خاصة تساعدهم على الأقل في الاستفادة من أراضيهم ومراعيهم بالزراعة والرعي لسد احتياجهم وتحسين مستواهم الاقتصادي... بل هناك جماعات أصرت على بقاء المؤسسات والمزارع التعاونية التي أنشأها الشيوعيون على حالها.

ورغم التحديات التي يواجهها العمل الإسلامي، فإن الظروف التي يعيشها المسلمون حالياً تعتبر مجالاً خصباً يجب استغلاله لصالح الدعوة الإسلامية، فالمسلمون مهما ضعفت ثقافتهم الدينية يشعرون بأنهم مسلمون، وأن القوى المعادية للإسلام اضطهدتهم لإخراجهم من دينهم الحنيف، وأن النكبات التي مرت عليهم زادت تعلقهم وتمسكهم بالإسلام الذي يميزهم عن الذين استعمروهم، واضطهدوهم لقرون عدة.

التوصيات والمقترحات

أ- الاقتراحات العامة:

١- توثيق العلاقات الأخوية مع الجماعات الإسلامية من خلال تبادل الزيارات والاتصالات الشخصية في فترات متقاربة بهدف التشاور وتبادل الآراء والأفكار، ومتابعة التغيرات التي تحدث هناك بسبب اضطراب الأوضاع العامة.

٢- توجيه انتباه المؤسسات التجارية والشركات الاستثمارية ورؤوس الأموال الإسلامية إلى أهمية دور الاقتصاد الإسلامي في تطوير وتحسين ظروف المسلمين المعيشية والاجتماعية في الجمهوريات الإسلامية في روسيا الاتحادية.

٣- دعوة الدول والجامعات والهيئات الإسلامية إلى تخصيص منح دراسية لأبناء المسلمين هناك في التخصصات العلمية والفنية حتى يمكن مساعدة الجماعات في إيجاد الخبراء والفنيين والعلماء الذين يتحملون مسؤولية تطوير مجتمعاتهم الإسلامية اقتصادياً وعلمياً وإسلامياً.

٤- التوعية الصحيحة والتوجيه السليم الذي يعزز في المسلمين ثقتهم بدينهم، ويزيل الصدأ الذي تراكم في نفوسهم بسبب العزلة والاضطهاد الشيوعي.

أ- تزويدهم بدعاة أكفاء مؤهلين علمياً وتربوياً من خريجي الجامعات الإسلامية، وتوجيههم للعمل في تلك المجتمعات الإسلامية.

ب- طبع وترجمة الكتب الإسلامية المبسطة عن الإسلام وتعاليمه وأحكامه وفضائله وتوزيعها بينهم.

ج- توفير أكبر قدر من المنح الدراسية لأبناء المسلمين، وتشجيع أبناء المسلمين مادياً ومعنوياً لدراسة العلوم الإسلامية في الجامعات الإسلامية مع السعي لتسهيل قبولهم في الجامعات السعودية.

د- الاهتمام بدعم المدارس والمعاهد الإسلامية وحلقات تعليم القرآن الكريم في المساجد، وتزويدها بالكتب والأجهزة التعليمية وتأمين احتياجاتها المادية.

هـ- إعداد مناهج مقروءة ومسموعة ومرئية عن مبادئ الإسلام وتعاليمه وعلاقته بالحياة والعلم والحضارة بأسلوب واضح بسيط يتضمن رداً ضمنياً على كل ما افتراه الأعداء ضده، وذلك باللغات المحلية والروسية.

و- الاهتمام بالبث الإذاعي الموجه من الإذاعة السعودية إلى مسلمي روسيا، وذلك بتقويته بإنشاء أو استئجار محطات إذاعية في الدول القريبة مثل تركيا وباكستان، وتوسيع نطاقه ببث إسلامي باللغة الروسية.

٥- دعم وطبع ونشر الكتب والدراسات الجادة التي تعالج تاريخ وحضارة مسلمي رابطة الدول المستقلة (الاتحاد السوفييتي) وقضاياهم من وجهة النظر الإسلامية.

٦- دعوة البنك الإسلامي للتنمية والهيئات والجامعات الإسلامية إلى تخصيص برامج تدريب لتأهيل أبناء المسلمين في روسيا من أجل أن يكتسبوا الخبرات الفنية والعلمية التي تساعد الجمهوريات الإسلامية على تنمية مواردها الاقتصادية ومعالجة مشكلاتها المدنية.

٧- إقامة دورة تعليمية وتربوية خاصة لرؤساء الإدارات الدينية أو نوابهم لمدة ستة أشهر في معهد الأئمة والدعاة بمكة المكرمة يكون هدفها تغذية ثقافتهم الإسلامية بالمفاهيم الصحيحة وتأهيلهم بالخبرات العلمية لمعالجة

القضايا الإسلامية في بلادهم، وتحسين لغتهم العربية وتقوية ارتباطهم بالأراضي المقدسة.

٨- دعوة عدد من كبار المسلمين وزعمائهم والأدباء الكتاب منهم في غير موسم الحج، لأداء مناسك العمرة، والقيام بزيارة المدينة المنورة، ووضع برنامج لإطلاعهم على ما بلغته المملكة العربية السعودية من تقدم حضاري، مع تمسكها بالإسلام، وذلك لرفع معنوياتهم الروحية، وبث الثقة في نفوسهم بدينهم الإسلامي الحنيف، ومقاومة ما ترسب في نفوسهم من دعايات شيوعية ملحدة تزعم بأن الإسلام دين التخلف، وأنه يعيق الحضارة، وأن المسلمين متخلفون في كل شيء.

٩- أن تقوم منظمة المؤتمر الإسلامي بحث الدول الإسلامية على فتح قنصليات في داغستان أو قبرداي شركس في بلاد القوقاز لتعزيز روابط الأخوة الإسلامية ومتابعة النشاط الإسلامي هناك.

١٠- إقامة ملتقى أو ندوة إسلامية في كل من شركسك عاصمة جمهورية قراتشاي - شركس لمسلمي بلاد القوقاز شمالاً وجنوباً، وأخرى في شمال القوقاز، وأن يتكرر ذلك كل سنتين، وذلك بهدف توضيح تعاليم الإسلام وأحكامه للإخوة المسلمين، وتبديد الافتراءات التي نسجت ضده، ورفع معنوية المسلمين وتأهيلهم ثقافياً.

١١- متابعة المساعدات التي قدمت إلى المؤسسات الإسلامية وملاحظة النشاط الإسلامي ونتائج زيارة وفود الرابطة بتكليف أحد المسئولين في الرابطة بزيارة المناطق الإسلامية مرة أخرى بصفة دورية، أو شبه دورية..

١٢- دعوة البنك الإسلامي للتنمية وغيره من المؤسسات الإسلامية في بناء مدارس إسلامية في كل من:

- سيمفر بول (آق مسجد) في القديم.

- ميكوب عاصمة جمهورية إديغا.

- شركسك عاصمة جمهورية قراجاي وشركس.

- نالجيك عاصمة جمهورية قبرداي بلغار.

١٣- الكتابة إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية يطلب الإسهام في فرش المساجد الرئيسية في عواصم الجمهوريات الإسلامية بالسجاد ومكبرات الصوت هدية من خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز حفظه الله.

ثانياً: الاقتراحات الخاصة لجمهورية إديغي:

١- متابعة تنفيذ المحضر الذي تم توقيعه مع الهيئة الإسلامية في جمهورية إديغي والذي تضمن ما يلي:

أ- تعيين خمسة دعاة يتقنون اللغتين: العربية والشركسية.

ب- إجراء مسح شامل للمساجد التي تم استملاك أرضها، والمباشرة في بنائها والعمل على إكمالها.

ج- مراجعة الترجمة الشركسية لمعاني القرآن الكريم التي طبعت في إديغي، وتنبيه المسلمين إلى الأخطاء التي وقعت فيها وتصحيحها.

٢- توثيق العلاقات الأخوية مع الهيئة الإسلامية التي أنشئت حديثاً والسعي إلى إزالة خلافات المسلمين لتحسين خدمة الدعوة الإسلامية.

٣- بعث أحد المسؤولين في إدارة الدعاة في الرابطة إلى جمهورية إديغي لخدمة الدعوة الإسلامية هناك، وتعيينه مبعوثاً لرابطة العالم الإسلامي في

شمال القفقاس.

٤- الاهتمام بطبع ونشر كتب إسلامية مبسطة عن أحكام الإسلام وفضائله باللغة المحلية.

٥- متابعة إنشاء جامع ميكوب المركزي والإسهام في نفقاته بمبلغ مناسب من رابطة العالم الإسلامي.

تم الكتاب

المحتويات

تمهـــــــيد ٤
قبل القوقاز: ٦
أصل التسمية: ٩
اسم شركس: ١٠
دخول الشركس في الإسلام: ١١
من سيمفربول إلى سوتشي ١٤
في مطار سوتشي: ١٦
لا مستقبلين: ١٩
في مدينة سوتشي: ٢٠
السمة لسوتشي: ٢٢
تمشية الأصيل: ٢٥
على الشاطئ الأسود: ٢٦
عشاء الفندق: ٢٩
مغادرة سوتشي: ٣٢
لا مسجد في سوتشي: ٣٤
جلسة في المطار: ٣٦
إلى كرسنا دار: ٣٨
في مطار كرسنا دار: ٤٠
في مدينة كرسنا دار: ٤٣
عملية التذكرة: ٤٦
إلى ميكوب: ٤٨
ريف بلاد الشركس: ٤٩
زهور القيظ: ٥٢
بحيرة أخرى: ٥٢
قرية ريفية: ٥٤
سد وجسر: ٥٥
حصان الراعي: ٥٥
مقبرة الصلبان: ٥٦
زلق الحمار ٥٧
هذه ميكوب: ٥٩
نظرة سريعة: ٦٢
مع أسرة أردنية: ٦٥
إطلالة على ميكوب: ٦٩

الغابة الجميلة: ٧١
طرف الأشجار: ٧٢
السنتوري أو المنتجع: ٧٥
نهر كواشا، أو نبع الأمير: ٧٦
مقبرة المسلمين: ٧٧
أراضي العائدين: ٨٠
مع نائب رئيس الجمهورية: ٨٢
إلى أرض الجامع: ٩٢
دار الفتوى: ٩٣
مأدبة حكومية: ٩٨
إلى قرى الشركس: ١٠٤
الريف الخصب: ١٠٦
القرية التي تروست: ١٠٨
النهر الذي لا يعرفونه: ١١٠
القريتان المتجاورتان: ١١٠
رمز الضيافة الشركسية: ١١١
قرية شيش خبل: ١١٢
بيت شركسي: ١١٤
المسجد القديم: ١١٧
المسجد الجديد: ١١٩
القناة الكبيرة: ١٢٠
وقريتان أخريان من دون مسجد: ١٢٤
مقبرة بلا ضريبة: ١٢٦
بلدة كوش أبل: ١٢٨
أول مسجد: ١٣٠
العودة إلى ميكوب: ١٣٣
في رئاسة الجمهورية: ١٣٣
مغادرة إديغيا: ١٣٤
عود إلى الريف الأخضر: ١٣٥
الجامعة العربية واللغة العربية: ١٣٦
إلى بلاد القرتشاي والشركس: ١٣٨
قرية ايفانويسك: ١٣٩
حتى الحافلات: ١٤٠
قرية زيل شونوسكا: ١٤١
خاتمة: ١٤٢
التوصيات والمقترحات ١٤٥
أ- الاقتراحات العامة: ١٤٥
ب- الاقتراحات الخاصة لجمهورية إديغي ١٤٨
المحتويات: ١٥١